المجلة العربية للعلوم الانسانية ـ العدد الثالث ـ المجلد الأول ١٩٨١ ص ص (٣٥ ـ ٧٤)

مؤدبو الخلفاء في العصر الأموي

٤١ هـ - ١٣٢ هـ

٦٦١م - ٧٤٩م

محمد صالحية

قسم التاريخ - جامعة الكويت

ملخص

يتصدى هذا البحث لدراسة منهاج التعليم عند العرب، وتطور أساليب التربية. ويناقش مسألة واحدة، وهي مرحلة تأديب الخلفاء من بني أمية، وقد اقتصرنا على الخلفاء لتحديد المنهاج، وقد تناولنا فيه، وتلك مسألة شائكة، أولئك الذين رافقوا الخلفاء في مختلف سني أعمارهم، وبينا الأسباب التي جعلت الخلفاء يختارون أولئك النفر لتأديب بنيهم.

وقد قادنا البحث إلى مناقشة مراحل تطور العلوم في هذا العصر، حيث بدا البلاط، المكان الأفضل لتتبع نشأة تلك العلوم، وخاصة ظهور التيار العقلي في بلاط عبد الملك بن مروان.

وعالج البحث منهاج التأديب، مركزاً على وصايا الخلفاء لمؤدبي ولاة عهدهم والتي رسمت الخطوط العريضة لهذا المنهاج، المشتمل على الدراسات القرآنية، والحديث، والأخبار والسير والقصص والحساب وغيرها مما تناوله البحث، وخلصنا إلى أن منهاج التأديب في العصر الأموي، كان متمشياً مع التطور العلمي لمختلف صنوف المعرفة، حيث أدخلت بعد عبدالملك بن مروان صنوف جديدة، وعلى الأخص علم الكلام.

وفي جزء من البحث عالجنا تطور طرائق التأديب، من تلقين واستقراء، واستعانة بالوسائل المعينة لإيصال المعارف لأذهان المتأدبين، وبهذا الصدد اشترط الخلفاء

ضرورة أخذ العلم درجة، وبتخير، فالعلم أكثر من أن يحاط به، فعلى المرء أن يأخذ من العلم أحسنه، ومن الجدير بالذكر أن الخلفاء قد أقروا مبدأ العقاب البدني بأصولية معينة.

وناقش البحث في خاتمته، أثر المؤدبين على خلفاء بني أمية، حيث استقرأ ثقافة المؤدب على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعقلي، والنتائج التي ظهرت في أفعال المتأدبين بعد أن تسلموا الحكم، وقدرنا أن تلك الأفعال، كانت انعكاساً طبيعياً لتلك الثقافة التي تزود بها المتأدب أخيراً، وتلك من أهم نتائج البحث إذ ان الكثير مما قيل حول شخصيات خلفاء بني أمية كيزيد بن معاوية، وخالد بن يزيد، وغيرهم تبدو متناقضة عندما تعرض على البحث العلمي الجاد، وعليه فإن دراسة تأديب هؤلاء تكشف عن ملامح ومعالم جديدة لحياتهم، وذلك لا يتأتى للباحث السياسي ـ صاحب الهوى أو الميل ـ أن يتبصره. وتلك محاولة أولى لإعادة فهم وكتابة التاريخ.

مقدمة:

البحث في التاريخ الأموي مسألة صعبة، وعرة المسالك، لأنه كتب بوجهة نظر عباسية، يبدو التحيز فيها واضحاً أحياناً، فبدت روايات أحداثه قلقة، مشوشة وتحتاج إلى المزيد من الجهد لتمحيصها ونقدها، وبالتالي الاقتراب من الحقيقة التاريخية، وإزالة التشويه والتزوير اللذين لحقا بها، وقد انسحبت هذه المقولة على غالبية المسائل التي يتعرض لها الباحث في التاريخ الأموي، ولا نغالي إذا قررنا بأنه لا بد من توفر شفافية خاصة، وحساسية متميزة لأولئك الذين يتصدون لموضوعاته، ومن هنا بدت صعوبة هذا البحث، فقد تشعبت مصادره على ندرتها، فلم نجد مرجعاً فيما نعلم تناول سير المؤدبين باعتبارهم يؤدون وظيفة التأديب، وإنما باعتبارهم فقهاء أو علماء أو نسابين أو رواة وإخباريين، وعليه فقد اقتضى البحث أن نتسقط الإشارات المقتضبة التي وردت في المراجع التاريخية والأدبية والفقهية واللغوية، ونخضعها للنقد في محاولة لتحديد الإطار العام لتاريخ التأديب في العصر الأموي، ومن ناحية أخرى، فقد حرصنا في بحثنا على عدم الخوض في تقييم منهاج المؤدب، وطريقته ووسائله، فذاك من اختصاص علماء التربية، وإنما حاولنا الاقتراب من تاريخ التأديب وتطوره خلال العصر، علنا ننجح في إلقاء بعض الضوء على

شخصيات خلفاء العصر وثقافتهم.

يبدو أن الهدف العام للتعليم في صدر الإسلام، كان تخريج الإنسان المسلم العارف بدينه، المتخلق بأخلاق القرآن الكريم، سواء من ناحية المبادىء أو القواعد السلوكية والتي تمكنه في النهاية من العيش عيشة حرة كريمة، فقد كان العرب يسمون الرجل، إن كان يكتب ويحسن الرمي والعوم «بالكامل» (ابن قتيبة، ١٩٧٣، جـ٢ ص١٦٨).

ولعل هذا هو السبب الذي جعل الحجاج بن يوسف الثقفي يطلب من معلم أولاده، تعليمهم السباحة قبل الكتابة، بدعوى أنهم قد يصيبون من يكتب عنهم، ولكنهم لا يصيبون من يسبح عنهم، (ابن قتيبة، ١٩٧٣، ج ٢ ص ١٦٦).

أما عبد الملك بن مروان، فقد كان ينصح بنيه بطلب الأدب، لأنهم إن احتاجوا إليه كان مالاً، وإن استغنوا عنه كان جمالاً (ابن عبد ربه، ١٩٤٠، ج٢ ص٢٣١ ـ ٢٣٢).

وقد أورد الجاحظ في صدر كتاب المعلمين، الذي نشر في مجلة المورد (المجلد السابع، العدد الرابع، ١٩٧٨، فصول مختارة، حاتم صالح)، أن الأوائل من خلفاء بني العباس، كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتاب والحساب ولعب الصوالجة والرمي في التنبوك والمجثمة والطير الخاطف ورمي البنجكاز والبنادق، وقبل ذلك الدبوق والنفخ والشيطار أو الشيطان، ثم الفروسية واللعب بالرماح والسيوف والمشاولة، والمناضلة[1] والمناولة والمطاردة ثم النجوم واللحون والطب والهندسة وتعلم النرد والشطرنج وضرب الدفوف والأوتار والوقع والنفخ في أصناف المزامير. كما أورد ابن عساكر ج ١٩ ق ٣١١ (مخطوط) أن معاوية كان يهتم بالفروسية، وكثيراً ما كانت تعقد سباقات الخيل في دمشق على غرار الأسواق، يشترك فيها الفرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر في الفخر بأنفسهم، وصار هذا تقليداً أموياً فيما بعد (ملكة أبيض، ١٩٨٠، ص٩٤).

إن هذه التربية كانت تفي بالمتطلبات الأساسية للمجتمع آنذاك، وأهمها ممارسة هوهم القومي، في الغزو والحرب، وإشباع ميلهم الفطري للهو والطرب، وعليه فإن ندب مؤدب لأولاد الخاصة كان عرفاً جارياً في عهد ما قبل الإسلام، إذ اعتاد أهل الحاضرة إرسال أبنائهم إلى البادية، يعيشون مع أترابهم، ويختلطون بمجتمع البادية،

فيأخذون من اللغة أفصحها ، ومن الشعر أفضله ، ومن الفروسية أمهرها ، واستمر الحال في صدر الإسلام ، غير أن انتشار حلقات الدرس الديني وتعدد الكتاتيب ، قد خلقت ظروفاً ساعدت على كسر احتكار التعليم للخاصة وأبنائهم ، وفتحت المجال أمام كل من تؤهله قدراته ، لتلقيه دون تكاليف باهظة .

غير أن طبيعة الانتقال من حياة البساطة إلى الحياة البدوية ومن ثم المدنية المعقدة ، وجعل الخلافة وراثية ، وحرصاً على توفير المناخ المناسب لأبناء الخلفاء وأبناء الخاصة ، باعتبارهم الفئة الحاكمة ، الملزمة بتولي زمام الأمور بحكم الوراثة والنسب ، عمل خلفاء بني أمية على اختيار المؤدبين لأبنائهم ، وعهدوا اليهم بتعليم أولادهم ، والإشراف عليهم في حياتهم الخاصة ، حتى في الطعام والشراب ، وطلبوا إليهم العناية بأخلاقهم وآدابهم ، كل ذلك ليظهروا مقدرة وبراعة في إدارة دفة الأمور عندما يتولى أحدهم إحدى المهام العامة التي سيكلف بها .

وفي تقديرنا أن نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق ، كان من الممكن أن يكون مخاطرة ، لأن المنطقة قد تعرضت لثقافة يونانية ورومانية وسريانية عريقة ، وكان من المحتمل أن تسيطر على الثقافة العربية الإسلامية إلا أن شخصية معاوية قد جمعت بين الإحساس العميق بالقيم الفكرية والخلقية للتراث العربي ، والمعرفة الواسعة للدين الجديد (ملكة أبيض ، ١٩٨٠ ، ص ٩) . فأحسن الاستفادة من محصلة تلك الثقافات ليزود بها ولي عهده .

ومما تجدر الإشارة إليه أن خلفاء بني أمية ، اعتادوا أن يرسلوا أبناءهم إلى بادية الشام التي لا تخلو من سمات حضارية ، حيث مضارب بني كلب ، ليسترضعوا فيها ، وعمدوا إلى اختيار أرقى الأسر ليقيم الأبناء عندها ، فيزيد بن معاوية استرضع عند أخواله في البادية كما عمد البعض منهم لإرسال أبنائه إلى المدينة المنورة ، باعتبارها مدرسة القرآن والحديث . إلا أنّ طبيعة الأحوال السياسية والظروف التي أشرنا إليها سابقاً دفعتهم لاختيار المؤدبين ، ومن هنا ظهرت طبقة المؤدبين في البلاط الأموي ، حيث يفرد جناح خاص للمؤدب في قصر الأمير المتأدب ، يعيش المؤدب فيه ، ويكفل له طعامه وشرابه ولباسه ، وقد يقضي مع المتأدب أعواماً طويلة ،

حتى إذا ما شب فارقه أو رافقه كاتباً أو نديماً أو حتى مؤدباً لابنه والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال، ما هي الشروط التي روعيت عند اختيار المؤدبين؟.

شروط اختيار المؤدبين:

لم تتضمن المصادر والمراجع التي رجعت إليها أية قواعد ثابتة أو شروط عامة لاختيار مؤدبي خلفاء العصر الأموي، وكل ما ورد إشارات عابرة لإنجازاتهم العلمية، أو بعض القصص التي ذكرت عرضاً مشيرة إلى أحداث أو نوادر وقعت معهم. كانت الإشارة إليها بقصد التعريف أو التشهير. ومن استقرائنا لتلك النتف والشذرات استطعنا أن نحدد الإطار العام الذي جرى بموجبه اختيار أولئك المؤدبين.

ونحن نرى أن سبب اختيارهم إنما يعود إلى بلوغ خبر هؤلاء المؤدبين إلى الخلفاء، أو تناقل الناس تفوقهم في علوم النحو والفرائض والحساب والخط واللغة والقرآن والتفسير وغيرها من العلوم؛ فمعاوية بن أبي سفيان يختار دغفل بن حنظلة الشيباني لتأديب ابنه يزيد لتأكده من براعته في معرفة أنساب العرب. وبخاصة قريش، وتفوقه في علم النجوم، حتى وصفت العرب حنظلة بأنه «علاّمة»، وضرب به المثل في النسب، فقيل «أنسب من دغفل».

وقد أورد صاحب لسان الميزان، (٥٧/١)، وصاحب الجمهرة، (٢٩٩)، أن معاوية، سأل دغفل، عندما وفد عليه عن العربية والأنساب، وخاصة نسب قريش، وكذلك عن علم النجوم، فأعجبه علمه، وطلب إليه أن يؤدب ابنه يزيد، وزاد به إعجاباً، عندما سأله عن كيفية حفظه هذا، فأجابه دغفل، «بأنه قد أجاد هذا بلسان سئول وقلب عقول» (ابن دريد، ١٩٥٨، ص٢١١، ٢٧٣، الجاحظ، ١٩٤٨، ج٢ ص٢٧٣، المسعودي، ١٩٦٤، ج٤ ص١٦٦، ياقوت، ١٩٧٧، ج٢ ص٤٠٩، الحصري القيرواني، ١٩٧٠، ج٢ ص٧٣٥، ابن قتيبة، ١٩٧٠، ج٢ ص١١٨، ابن حبيب، بدون ٤٧٨) ولا تخفى علينا أهمية دراسة الأنساب في تلك المرحلة من عمر الدولة الأموية، فقد كان هم معاوية أن يثبت عراقة بني أمية، وعلو شأنهم جاهلية وإسلاماً، وأن يرسخ تلك الأفكار لدى ولي العهد، ومن ناحية ثانية أن يدحض دعاوى آل البيت بأنهم ظلموا حين تولى بنو أمية زمام الأمور. ثم إنها مهمة

من ناحية أخرى للوراثة والفرائض ولديوان الجند.

لقد كان عبد الملك بن مروان أكثر خلفاء بني أمية حرصاً واهتماماً باختيار المؤدبين لأبنائه، وقد انعكس ذلك الأثر على التاريخ الأموي بشكل عام، فقد أصبح أربعة من أولاده خلفاء وهم، الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ولا غرابة، إذ أجمعت كتب الأدب والتاريخ على وصف عبد الملك بن مروان بالفقيه والعالم، فصاحب المعرفة والتاريخ (البسوي، ١٩٧٦، ج١ ص٥٦٣) برواية أبي الزناد يرى بأن فقهاء المدينة أربعة هم، سعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن أبي ذؤيب، وأورد الكتبي جواب ابن عمر، عندما سئل عمن يسأل الناس إذا انقرض أشياخ قريش، فقال لهم «إن لمروان فقيهاً فسلوه»، وفي رواية أخرى أن ابن عمر قال «ولد الناس أبناء، وولد مروان آباء» (الكتبي، ١٩٧٣، ج٢ ص٤٠٢) وكان يسمى حمامة المسجد، لاجتهاده في العبادة (ابن عبد ربه ١٩٤٠، ج٨ ص٥٧، ملكة أبيض، ١٩٨٠، ص١٠٨).

ويذكر أن صلته بالمحدثين كانت قوية، فقد قرب إليه المحدث عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي وكان يجلس مع عبدالملك على السرير (ابن عساكر، مخطوط، ج١ ق٣٤٤، ملكة أبيض، ١٩٨٠، ١١٠).

ولعل دراسة عبدالملك على الخليفتين عثمان ومعاوية وملازمته لحلقات الصحابة، أمثال، أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأم سلمة وابن عمر، (الكتبي، ١٩٧٣، ك٢ ص٤٠٢، بن حبيب، بدون، ص٤٧٥ - ٤٧٦، ابن حجر، ١٣٢٥ هـ، ج١ ص٣١٧)، قد تركت آثارها البينة على شخصيته، وجعلته يحسن اختيار المؤدبين لأبنائه، وأن يفاخر بأن ما حصّله أبناؤه من الأدب يفوق ما حصّلوه في البادية أو المدينة.

ومن ناحية أخرى فقد اقترن اسم الضحاك بن مزاحم، وعامر بن شراحيل الشعبي، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر بالوليد كمؤدبين له، وكان الأول مفسراً، ذكره ابن حبيب تحت عنوان «أشراف المعلمين وفقهاؤهم» ويبدو أن اختياره جاء نتيجة لاشتهاره بتفسير القرآن الكريم، (ابن عبد ربه، ١٩٤٠، ج٦ ص٢٣٤، الذهبي ١٩٦٣، ج٣ ص٣٢٥، ١٩٦٦، ج١ ص١٢٤، Brocklemann,

S. I. 235) وكان الاختيار متوافقاً مع تطور العلوم الدينية في العصر الأموي، إذ اتجهت الدراسات الدينية في هذه المرحلة إلى التفسير بعد إرساء أسس علم القراءات.

أما الشعبي، فقد كان معروفاً بالحفظ (الذهبي، ١٩٥٦، ج١ ص٨١) ويصنف بأنه من رجال الحديث الثقات (أبو نعيم الأصفهاني، ١٩٦٧، ج٤ ص٣١٠، ابن سعد ١٩٦٨، ج٦ ص١٧١، بـــدران، ١٩٧٩، ج٧ ص١٣٨، الكتـــبي، ١٩٧٣، ج١ ص٢٤٤). بالإضافة إلى إجادته القراءة القرآنية والتفسير والحساب. وكان الشعبي يحدث عن نفسه، بأنه ما حدثه أحد بحديث إلاّ حفظه، وقد أورد الذهبي (الذهبي، ١٩٥٦، ج١ ص٨١)، جواب الشعبي، عندما سئل من أين له هذا العلم كله، فكان جوابه «بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب».

إن هذه الصفات التي عرف بها الشعبي، جعلت الحجاج بن يوسف الثقفي يرشحه ليكون سمير الخليفة عبد الملك وجليسه وخليه عندما طلب إليه أن يبعث له رجلاً يصلح للدين والدنيا (ابن عبد ربه، ١٩٤٠، ج٢ ص٢٧٤، وفيه أن روح بن زنباع هو الذي دله على الشعبي).

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، تلك الآثار التي خلفها الشعبي، ولا زالت محفوظة في بطون المكتبات، فقد ألف الشعبي في المغازي والفرائض والجراحات وفي الطاعة والعبادة وفي الفتوح.

أما الثالث إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر ت١٣٢ هـ، فقد وصف بأنه من ثقـات الشاميـين وعلمـائهم الكبـار (الـذهـبي، ١٩٦٦، ج٥ ص٢٢٦ ابن حجر، ١٣٢٥ هـ، ج١ ص٣١٧)، وقد جذبته اللغة العربية حتى غدا من علمائها المعدودين فاختاره عبدالملك لتأديب بنيه، وقد أورد ابن عساكر أن عبد الملك كان يقول «ما رأيت مثلنا ومثل هذه الأعاجم، كان الملك فيهم دهراً طويلاً، فوالله ما استعانوا منا إلاّ برجل واحد ـ يعني النعمان بن المنذر، ثم عدوا عليه فقتلوه، وإن الملك فينا هذه المدة، وقد استعنا منهم برجال، إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر، يعلم ولد أمير المؤمنين العربية» (ابن عساكر، مخطوط ج٢ ق٣١٨، ترجمة إسماعيل بن عبيد الله بن المهاجر، ملكة أبنيض، ١٩٨٠، ص١١٢).

ونصل إلى محمد بن شهاب الدين الزهري ، وهو أكثر المؤدبين صلة بالبلاط الأموي ، فقد ارتبط اسمه بتأديب الخلفاء الوليد وسليمان ويزيد وعمر بن عبدالعزيز وهشام ، وكان موضع ثقة عبدالملك بن مروان ، ومع أن المراجع تؤكد أن الزهري قضى معظم حياته في المدينة ، فإنها تشير إلى كثرة تردده على دمشق ، ولعل إيراده لحديث سيدنا عمر بن الخطاب ، حول وضع أم الولد بعد وفاة زوجها ، كان السبب في إقامة أول اتصال بين عبد الملك والزهري ، إذ قدمه الفقيه مكحول للخليفة وقرظه بأنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضيه من الزهري (ابن حجر ، ١٣٢٥ هـ ، ج٩ ص٤٤٩) .

ونحن نرى أنه كان لابن شهاب الزهري شهرة واسعة ونستبعد الا تكون أخباره قد وصلت إلى مسامع عبد الملك بن مروان ، فقد كان رائد علم المغازي وأخبار قريش والأنصار (ابن عساكر ، مخطوط ، ج١١ ص٧٧٧ ظ ، الذهبي ، ١٣٨٣ هـ ، ج٥ ص١٣٦ - ١٤٠ ، البسوي ، ١٩٧٦ ، ج١ ص٦٢٣) .

ألف في المغازي وأسنان الخلفاء والناسخ والمنسوخ في القرآن وتنزيل القرآن ومشاهد الأنبياء (ابن سعد ، ١٩٦٨ ، ج٢ ص٣٨٨ ، أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج١٩ ص٥٥٩) ، وهو مقرىء مشهور ، وأحد كتّاب الحديث المشار إليهم بل يعتبره البعض إماماً في الحديث والرواية وكذا الفرائض (ابن قتيبة ، ١٩٧٠ ، ص٢٣٩ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج٧ ص٢٨٩ ، ابن الجزري ، ١٩٢٣ ، ج ص٢٦٢ ، ابن كثير ، ١٩٧٧ ، ج٩ ص٣٤٢ ، الذهبي ، ١٣٨٣ هـ ج٥ ص٣٦) .

ولا غرابة ، فقد قرظه الليث بن سعد فيما بعد بقوله « ما رأيت عالماً أجمع من ابن شهاب ، ولا أكثر علماً منه ، ولو سمعت ابن شهاب يحدث في الترغيب فتقول لا يحسن إلاّ هذا ، فإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب ، قلت لا يحسن إلا هذا ، قال : وإن حدث عن القرآن والسنة ، كان حديثه جامعاً (البسوي ، ١٩٧٦ ، ج١ ص٦٢٣ ، ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ص٧٣) .

ونخلص من هذا إلى أن عبد الملك بن مروان لم يختر الزهري لتأديب أبنائه إلاّ لأنه تفرد دون سائر الفقهاء بإجابة مسائل فقهية ، تتعلق بمصير فئة من المجتمع ، كانت تعيش في البلاط الأموي ، فئة الإماء ، ثم تفوقه في فروع العلم المعروفة آنذاك ، والتي سنعالجها عند عرضنا لمناهج التأديب ، ومع ذلك ، فقد كانت له مجادلات ومجالسات مع

عبد الملك ، قبل أن يعهد إليه بتأديب أبنائه ، فقد سأله عن الأنساب وبخاصة قريش ، وقد اعترف الزهري بأن الخليفة عبد الملك كان أعلم منه في هذا المجال (الذهبي ، ١٣٨٣ ، ج ٥ ص١٣٦).

وسأله الخليفة عن نشأته وشيوخه ، ولما ذكر الزهري أن من بين شيوخه في المدينة ابن يسار ، وقبيصة بن أبي ذؤيب وسعيد بن المسيب ، عاب عليه عدم مرافقته لعروة ابن الزبير ، بقوله « وأين كنت من عروة بن الزبير ، فإنه بحر لا تكدره الدلاء » (ابن عبد ربه ، ١٩٤٠ ، ج٢ ص٨٣) وبالرغم من ذلك ، فإن هشاماً ما عاد لاختيار الزهري مؤدباً لأبنائه ، إلاّ بعد أن اطمأن إلى سلامة علمه وتمكنه من امتلاك زمامه ، فقد طلب إليه أن يملي شيئاً من الحديث على بعض ولده ، فأملى أربعمائة حديث (الذهبي ، ١٩٥٦ ، ج١ ص١١٠) ثم عاوده هشام بعد شهر أو أكثر وأبلغه أن الكتاب الذي أملى فيه الحديث قد ضاع فدعا بكاتب آخر ، فاملاها عليه ، ولما قابلها هشام بالكتاب الأول ، قال : ما غادرها حرفاً واحداً . فتأكد بذلك من قوة حفظه ، وتدلنا تلك الحادثة على شدة حرصه في اختيار المؤدبين ، فمع أن هشاماً نفسه تأدب على يدي الزهري ، إلاّ أنه كان يخشى مغبة تقدم العمر به ، فيختلط علمه ، وتضعف ذاكرته ، وما يعود كفؤاً لتأديب بنيه ، فلما انتفت شكوكه ، كلفه بالعمل مرة أخرى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفقهاء والعلماء ما زالوا يعدون الزهري إمامهم حتى في تلك المرحلة المتقدمة من السن ، إذ يصف عمر بن عبد العزيز المؤدب الزهري بأنه كان مقدماً في العلم بمغازي الرسول ﷺ ، وأخبار قريش ، ويقول الإمام مالك بن أنس ، « عن الزهري أيضاً » « ما له في الناس نظير » (أبو الفرج بن الجوزي ، ١٩٧٧ ، ج ٢ ص ٧٧).

وأما الخليفة عمر بن عبد العزيز فيرتبط تأديبياً بعالم المدينة عبيدالله بن عبدالله ابن عتبة ، وصالح بن كيسان ، وسالم بن عبدالله ، إذ كان والده قد بعثه إلى المدينة المنورة ليؤدب فيها ، وكتب إلى صالح بن كيسان أن يتعاهده لما عرفه فيه من صلاح وتقوى وعلم . وفي المدينة كان الفتى يختلف إلى عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، يسمع العلم منه ، فأخذ عنهما الحديث والفقه (أبو الفرج بن الجوزي ، ١٣٣١ هـ ، ص٨ ، ٩).

هذا وقد عرف عبيدالله بن عتبة بسعة علمه واطلاعه، حتى وصفه الزهري، بأنه إذا لقيه فإنه يفجر به بحراً، وأثر عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال، وددت لو أن مجلساً من عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود لم يفتني (ابن عبد ربه، ١٩٤٠، ج ٢ ص٨٣).

ومن ناحية ثانية، فقد استدعى عمر بن عبدالعزيز، سالم بن عبد الله بن عمر ليؤدبه في سلوكه السياسي، إذ طلب إليه أن يكتب له سيرة عمر بن الخطاب ليهتدي بهداها، كما عاود اتصاله بصالح بن كيسان ليكون إلى جواره يعظه ويؤدبه، وكذا استدعى رجاء بن حيوة ليكون نديمه وواعظه (الذهبي، ١٣٨٣ هـ، ج١ ص١٦٤، ١٩٥٦، ج ١ ص١٤٩، السيوطي، ١٩٥٢، ص٢٤٩، ابن حجر، ١٣٢٥ هـ، ج ٤ ص٣٩٩، البسوي، ١٩٧٦، ج ١ ص٥٦٩).

ومن ناحية أخرى فقد أوضح عمر بن عبدالعزيز دوافعه عند اختياره المؤدب لابنه عبدالملك، برسالته إلى سهيل مولاه التي جاء فيها بعد البسملة والحمدلة:

«من عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، إلى سهيل مولاه أما بعد، فإني اخترتك على علم بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالي، وذوي الخاصة بي» (ابن الجوزي، ١٣٣١ هـ، ص٢٥٧) وارتبط اسم الوليد بن يزيد بكل من حماد الراوية، وعبد الصمد بن عبد الأعلى الشباني، وكان الأول معروفاً بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها (أبو الفرج الأصبهاني، ١٩٦٩، ج٦ ص٧٠ البغدادي، بدون ، ج ٤ ص١٣٢، ابن حجر، ١٩٧١، ج ٢ ص٣٥٢، سوزكين، ١٩٧٥، ص٢٤٩). حتى انه كان يروي لكل شاعر يعرفه الوليد، وهو الذي جمع المعلقات السبع، وقد وصفه ابن المعتز بأنه شاعر «مفلق» (ابن المعتز، ١٩٦٨، ص٢٢٤)، وكذا عبد الصمد الذي اشتهر فيما بعد بزندقته ولهوه ومجونه، والذي سنتناول صفاته تلك بالمعالجة فيما بعد، كما ذكر يزيد بن مساحق السلمي، كأحد أولئك الذين أدبوا الوليد، ولكن المصادر والمراجع تقف إلى هذا الحد دون الترجمة له، أو التعريف به (ابن قتيبة، ، ١٥٧، ٤٨٢، ٤٩٠، الجاحظ، ١٩٤٨، ج١ ص٢٥٦، ابن حجر، ١٩٧١، ج٤ ص٢١، ابن خلكان، ١٩٧٢، ج١ ص١٦٤).

أما بنو يزيد بن عبد الملك، فقد أدبهم عبد الواحد بن قيس السلمي، الذي عرف

بأنه أعلم أهل الشام بالنحو (ابن قتيبة، ١٩٧٠، ٣٥٢).

ومن الجدير بالذكر أن يزيد بن عبد الملك، كان أول أمير أموي يحضر حلقات التدريس في الجامع الأموي طلباً للعلم (ابن عساكر، مخطوط، ج٨، ق١٦١، ملكة أبيض، ١٩٨٠، ١٥١). وأما آخر خلفاء بني أمية، مروان بن محمد بن مروان، فقد أدبه الجعد بن درهم، حتى انه نسب إليه، وكان الجعد معروفاً بأنه صاحب رأي، قال بخلق القرآن، وبنفي صفات الله، ويبدو أن الاتصال وقع بينهما خلال ولاية مروان بن محمد للجزيرة وحران من بلاد الشام، فالجعد حراني الموطن، كانت له دراية بآراء الصابئة واليهود واليعاقبة، ولعل مروان اقتنع بآرائه فاختاره ليتأدب على يديه، وترى بعض المراجع أنه رافقه صغيراً، ولو تجاوزنا الفترة التي اختير فيها لتأديب مروان، في مرحلة الطفولة أو الشباب، فإننا نلمس بأن اختياره يعود إلى القدرة الفائقة التي أظهرها في تقدير قيمة العقل، وكانت تلك الآراء سبباً في علو مرتبة الجعد عند مروان (الجاحظ، ١٩٥٥، ج٢ ص٣٢١، البيهقي، ١٩٧٠، ص٢٣٩، القلقشندي، ١٩٦٣، ج١٣، ص٢٥١، ابن الأثير، بدون، ج١ ص٢٣٠، الزرو، ١٩٧١، ١٤٧).

ومن ناحية أخرى، فقد كان لرفقة عبد الحميد الكاتب لمروان بن محمد أثر في تأديبه، مع أنه لم يتأدب على يديه، بل اقتصر الأمر على اللقاء الذي كاد أن يكون يومياً في الفترة الأخيرة. ولعله من نافلة القول أن نؤكد طول باع عبد الحميد في الكتابة والبلاغة، فقد فتحت الرسائل به وختمت بابن العميد (الذهبي، ١٣٨٣ هـ، ج٥ ص٢٧١).

ومن تحليلنا لطرق اختيار المؤدبين لأبناء الخلفاء، نستطيع أن نسجل الملاحظات التالية:

- اعتاد بنو أمية إرسال أبنائهم إلى البادية، وخاصة بادية الشام، ليتأدب الأبناء هناك، يتعلمون العربية والأشعار والأدب والأخلاق البدوية الأصيلة، وكل ما يتصل بحياة البادية من فروسية وشجاعة وكرم.

- ثم عمد بعض أمراء بني أمية لإرسال أبنائهم إلى المدينة وخاصة عبد العزيز بن مروان، لدراسة أحاديث الرسول ﷺ ودراسة الإسناد وطرقه، وما ذاك إلاّ لأنهم

يعتبرون المدينة مدرسة الحديث، ثم انها ما زالت قريبة من البداوة، ويؤكد ما ذهبنا إليه رواية ابن عيينة «من أراد الإسناد والحديث فعليه بأهل مكة، ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام» (ابن عساكر، مخطوط ج١ ق٣١٦)، ومع أنها حالة طارئة لا يمكن القياس عليها، فإنها تبرز التحول الطفيف في منهاج التأديب، وتشير إلى بدء تكوين مؤسسة تأديبية جديدة، أخذت تظهر في العصر الأموي، لا سيما وأن بادية الشام لا تعتبر منطقة مغرقة في البداوة، بل إنها ضربت بسهم معقول من التطور الحضاري والمدني.

إن هذا التحول يتوافق مع تطور دراسة العلوم الدينية، وسوف نشير إلى ذلك عند تعرضنا لمناهج التأديب، ولعل الظروف السياسية والفتن التي شهدها العصر الأموي، وبخاصة بعد وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ، جعلت خلفاء بني أمية يحجمون أو يتوانون في إرسال أبنائهم إلى المدينة فيما عدا عبد العزيز بن مروان.

ونحن نرى أن اختيار المؤدبين، كان يتم وفق القضايا التي كان يراها الخليفة ضرورية لإكمال شخصية ولي عهده، ولذا ركز الخلفاء على الجانب الديني، فاختاروا أبرز المؤدبين ممن برعوا بعلوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والفرائض وغيرها، ومع أن هذه الأمور أساسية في حياة كل مسلم، فإن خلفاء بني أمية أولوها الاهتمام الزائد ليظهروا أمام الناس بأهليتهم لخلافة رسول الله ﷺ...، ومن ناحية أخرى، فقد اهتموا بأنساب العرب وأيامها، والشعر والنحو والحساب، وكلها أمور أساسية لتعميق صلة الأمويين بالقبائل العربية وقد راعى خلفاء بني أمية أن يجعلوا قصورهم أماكن للتأديب، إذ يفرد جناح خاص للمؤدب، يقضي جل وقته مع المتأدب، مدرساً ومؤدباً ومراقباً ومشرفاً.

والملاحظة الظاهرة، أن معظم المؤدبين كانوا من الفقهاء والعلماء الذين سمت منزلتهم، وكانوا ذوي سمعة خاصة في المجتمع العربي الإسلامي، ذاك أن خلفاء بني أمية حرصوا على أن يرافق هؤلاء أبناءهم، ليكتسبوا علمهم وأدبهم وحسن سلوكهم.

منهاج التأديب:

لا تسعفنا المصادر والمراجع بتوضيح الكيفية التي كان يتم فيها التأديب وكل ما

ورد إشارات من خلال الوصايا التي كان يوجهها الخلفاء للمؤدبين، يوصونهم باتباعها عند بدء العمل، أو استنتاجاً من تتبعنا للآثار العلمية التي تركها المؤدبون وألفوا فيها، أو استقراء لبعض الحوادث التي لفتت أنظار الخلفاء لهذه الفئة من العلماء، فأوكلوا إليهم أمر أولادهم.

وبرجوعنا إلى كتابات الزهري والقرطبي والسيوطي والذهبي والبغدادي وغيرها استطعنا أن نحدد معالم منهاج التأديب في العصر الأموي، ونود هنا أن ننبه إلى الأمور التالية:

- لقد اتبع الخلفاء الأمويون، معاوية ويزيد ومروان، المنهج السلفي في تأديب أبنائهم، بمعنى أن ما اهتموا به كان استمراراً لمنهاج الصحابة والتابعين، وهو المنهاج الذي اقتصر على قراءة القرآن وتفسيره، واستخراج المواعظ والقصص منه، فهمّ الصحابة كان تعلم القرآن، واقتران هذا بالعمل به (القرطبي، ١٩٦٧، ج١ ص٤٠، الزرو، ١٩٧١، ص٢٠)، والتقليل من رواية وجمع الأحاديث لأسباب معروفة، غير أن معاوية بن أبي سفيان أدخل علم الأنساب كمنهج للتأديب[٢]، ولعل ذلك لأسباب سياسية، إذ كان يرى بأن ابنه يزيد، يجب أن يكون مؤهلاً بتلك الفنون تمهيداً لاتخاذ الخطوات العملية لتوليته العهد، وقد كمل علمه، وعلت خبرته العملية في حسن التعامل مع التكتلات القبلية، فأشارت المراجع إلى وفادة دغفل بن حنظلة بن زيد الشيباني على معاوية حيث سأله عن أنساب العرب وقبائلها، وأيها أعز جاهلية وإسلاماً (أبو علي القالي، بدون، الذيل، ٢٦)، كما سأله عن النجوم والعربية، فأعجبه علمه وطلب إليه أن يؤدب ابنه يزيد (ابن قتيبة، ١٩٧٠، ص٤٨، ص٢٦٥، ابن قتيبة، ١٩٧٣، ج٢ ص٤٧٤، ابن حبيب، بدون، ٤٧٨، الجاحظ، ١٩٤٨، ج١ ص٤٧، أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٦٩، ج٦ ص٥ بولاق، ابن حجر، ١٣٢٥ هـ، ج٤ ص٢١٠، الذهبي، ١٩٦٣، ج١ ص٣٢٨، ابن دريد، ١٩٥٨، ص٢١١، الحصري القيرواني، ١٩٧٠، ج٤ ص٣١).

وفي هذا دلالة على أن علم الأنساب، كان له مجال في التعليم عند بني أمية، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا بأن كتاب التشجير، وهو شجرة النسب، الذي اقتبس منه الهمداني الكثير، في كتابه الإكليل، ١٩/١، ٢٠، ١/٢ إنما وضع أساساً ليزيد بن معاوية.

ويبدو لنا أن مراجعة مخطوطة ، السيرة عن دغفل بن حنظلة الشيباني ، المحفوظ في الامبروزيانا ، وكذا كتاب التناصر والتظافر ، ط استنابول سنة ١٣٠٢ هـ ، ربما تلقي الأضواء على منهاج تأديب يزيد بن معاوية ، وسيرته ، ومطارحته مع دغفل بن حنظلة (سزكين ، ١٩٧٥ ، ص٣٥ ـ ٤٠) . فما زالت سيرته غير واضحة ، تناولتها أيد كثيرة ، أعملت بسيرته تشويهاً قد يكون متعمداً أحياناً .

أما الأمر الثاني فيتعلق بعبد الملك بن مروان ، وتأديب أبنائه الوليد وسليمان ويزيد وهشام والآخرين ، ونحن نرى أن منهاج التأديب في بلاط عبد الملك بن مروان ، كان يتفق وتطور العلوم في العصر الأموي ، فقد أورد الذهبي في العبر ، ٢٢٦/٥ ، أنه استحدثت في زمن عبد الملك بن مروان ، دراسة القرآن الكريم ، والذي أحدثها هو هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومي في دمشق ، وذهب ابن عساكر في تاريخ دمشق ، ٤٩/٢ ، إلى أن عبد الملك بن مروان قد أخذ بقراءة هشام بن إسماعيل ، وعمل مولى لعبد الملك على نشرها في المسجد ، ولعلنا نراها كنوع من التوجه لنشر القراءة في البلاط الأموي وخاصة بلاط عبدالملك وأبنائه . إن دراسة أثر القُراء في حياة الخلفاء ، وكذا تأثيرهم في الفكر السياسي للدولة من الأمور التي لا بد وأن تحظى باهتمام خاص عند الباحثين ، لا سيما وأن الكتابة كانت بدون تنقيط وبدون تشكيل ، واختلفت اللهجات العربية ، فكان كل ذلك مما سمح بتعدد القراءات وبالتالي أكسب القراء نفوذاً محلياً قوياً ، حيث بادر كل قطر لتأييد قارئه ، وفي هذا تأييد للكيان المحلي للأمصار ، وانعكس ذلك فيما بعد على جماعة القراء الذين حددوا موقفهم من الوضع القائم على أسس اعتبروها مثلاً إسلامية ، وكان لهم تأثير واضح في صفوف عامة الناس ، فلا بد والحالة هذه أن يكون لهم تأثير في تأديب بني أمية (للاستزادة حول دور القراء في الفكر السياسي الإسلامي ، ابن عساكر ، مخطوط ، ج١ ص٢١٣ ، الطبري ، ١٩٦٢ ، ج٤ ص٣٤٤ ، ص٤٧٠ ، ص٤٩٣ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج٤ ص٤٦٩ ، الدوري ، ١٩٦٤ ، ص٥٤) .

إن دراسة وصايا عبد الملك لمؤدبي بنيه ، تكشف المناهج التي كان يتوخاها لهم ، وقد أورد البلاذري بعضها في أنساب الأشراف ، ١١ /١٤٩ ـ خ ـ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٥/١١ ، ١٩٦ ، فكانت الوصية الأولى لمؤدب ولده ، دون تحديده ، أما الأخرى ، فكانت وصيته لإسماعيل بن أبي المهاجر ، مؤدب مسلمة ويزيد وعنبة .

ونعتقد أن ابنه هشاماً قد حذا حذو والده في منهاجه التأديبي ، وقد وردت بعض وصاياه في كتاب أخبار الأذكياء ، لابن الجوزي ، ٣٩٠ ، وفي الموفقيات ، للزبير بن بكار ، ٨٣ وكذا (السجستاني ، ١٩٦١ ، ص ١٣٧ - ص ١٣٩) وسوف نعرض لبعضها فيما بعد .

ومن تحليلنا لتلك الوصايا نخلص إلى أن عبدالملك قد اختط منهاجاً واضحاً لتأديب أبنائه ، ولا غرابة في ذلك ، فعبد الملك من العلماء القلائل الذين برزوا في مختلف العلوم والفنون ، إذ أولى عناية خاصة لدراسة كتاب الله وتفسيره والحديث ودراسته والشعر والأخلاق والفضائل وغيرها . ولعلي أرى من المفيد أن أثبت بعض تلك الوصايا ، وأحللها وصولاً للهدف المنشود . فقد أورد البلاذري حديث عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة « دعا عبد الملك بمؤدب ولده ، فقال : إني قد اخترتك لتأديب ولدي ، وجعلتك عيني عليهم وأميني ، فاجتهد في تأديبهم ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من أمرهم ، علمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه ، وقفهم على ما بين الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الأخلاق بأحسنها ، ومن الآداب بأجمعها ، وروهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أصدقه وجنبهم محادثة النساء ومجالسة الأظناء ومخالطة السفهاء وخوفهم بي ، وأديهم ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وأنا أسأل الله توفيقك وتسديدك » ثم يسمى له الرزق ، ويبدأه بصلة حسنة . والوصية تبين الأسباب التي دعته لاختيار المؤدب ، وتوضح دوره ، فهو عين الخليفة على أولاده ، يراقبهم ويرعاهم ويؤدبهم ، وأمينه على فلذاته ، يطلب إليه أن يكون مجداً في عمله ، ويقدم النصيحة الخالصة لهم ، ثم يبين له المنهاج ، وهو يتلخص فيما يلي ؛

- أن يعلمهم كتاب الله وحفظه وتفسيره وبيان حلاله وحرامه وقد ذكر أن الشعبي ، مؤدب الوليد ، كان يعجب لمن يفسر القرآن ولا يقرؤه (الذهبي ، ١٩٥٦ ج ١ ص٨٣) ، فالوصية تشير إلى ضرورة تعليم بنيه قراءة القرآن حتى يحفظوه ثم يعنى المؤدب بالتفسير .

- أن يرويهم المؤدب أصدق الحديث ، ولنا وقفة عند كلمة أصدق ، إذ ان بعض الفئات التي نازعت عبدالملك ، استعانت بأحاديث نسبتها إلى رسول الله ﷺ ، لتدلل على صدق ما ذهبت إليه ، فنبه عبدالملك إلى ذلك ، وطلب إلى مؤدب بنيه أن ينقد

الأحاديث جرحاً وتعديلاً قبل تلقينها لأولاده.

- أن يدرسهم أعفّ الشعر، ويبتعد بهم عن شعر الدنيا، وقد رجعنا إلى عدد من المراجع علّنا نحدد مفهومهم للشعر العفيف.

وانتهينا إلى أن المقصود بذلك الابتعاد عن أشعار كثير بن عبدالرحمن بن الأسود، صاحب عزة بنت جميل، وكذا شعر عمر بن أبي ربيعة ومن هم على شاكلتهما من الشعراء، وقد جعل شعر هؤلاء غير عفيف. أما باقي الشعراء فيمكن أن يروي شعرهم، ولا تخفى أسباب ذلك على الإنسان العادي، ثم يطلب إليه أن يهتم بهم ويعودهم أدب السلوك والمعاملة، ويبعدهم عن محادثة النساء وأقران السوء، ومن الجدير بالذكر أن خلفاء بني أمية حرصوا على تعليم أبنائهم الأشعار التي تمجد الفضائل، وكانت وصية معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص فيما يتعلق بالشعر نموذجاً يحتذى في تعلم الشعر فيما بعد. فقد جاء في وصية معاوية «أراك تعجب بالشعر، فإن فعلت، فإياك والتشبيب بالنساء، فإنك تغري به الشريفة، وترمي به العفيفة، وتقر على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء، فإنك تخفق به كريماً، وتستثير فيه لئيماً، وإياك والمدح، فإنه كسب الوقاح وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل في الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتؤدب به غيرك». (ابن عساكر، مخطوط، ج ٩ ق ٢٩١ ترجمة عبد الرحمن بن الحكم بن العاص، ملكة أبيض، ١٩٨٠، ص١٥٠).

- ويدعوه ليتوعد أبناءه به إذا ما تجاوز أحدهم حدود الأدب. هذا ولم يقتصر تأديبه على تلك النواحي، بل أولى الجوانب السياسية، والإدارية وطبيعة الحكم كل عناية، فقد أورد البلاذري في أنساب الاشراف، ١١ / ١٧٠ - ١٧١ حديث أبي أيوب الرقي المؤدب عن أبيه، فقال: دعا عبد الملك مؤدب ولده وقال له: رو ولدي ما في هذا القرطاس. وإذا به وصية معاوية لابنه يزيد ويبدو أن عبد الملك قد أدخل هذا المنهاج في الحكم والسياسة، عندما تيقن من صلابة عود أبنائه وقدرتهم على مواجهة الأعباء التي ستوكل لهم.

ولا تخرج وصية عبد الملك، لإسماعيل بن المهاجر، مؤدب أولاده مسلمة ويزيد وعنبسة في منهاجها عن الوصية السابقة، إلا في بعض تفصيلاتها، إذ طلب إليه

أن يحث أبناءه على صلة الأرحام ، فيحترمهم في العلن ، وإن شاء أن يتناولهم لخطأ فعلوه فبالسر ، وان يعلمهم الصدق ولو وصل الأمر بأحدهم إلى الاعتراف بجريمة قتل (البلاذري ، مخطوط ، ج ١١ ، ق١٩٦) اقترفها جزاؤها إقامة الحد عليه.

ومن الجدير بالذكر أن عبد الملك اهتم بتعليم أبنائه اللغة العربية والنحو اهتماماً بالغاً ، فقد اعتاد أن يرسل أولاده إلى البادية ليسترضعوا بها ، ويلقنوا اللغة العربية الفصيحة فقد نشأ سليمان بن عبد الملك عند أخواله بني عبس (أبو الفرج الملطي ، ١٩٥٨ ، ص١١٤) خلافاً لما هو شائع من أن عبد الملك كان يفاخر بأنه الوحيد الذي لم يرسل بنيه إلى البادية ، فاللغة العربية عند عبد الملك رابطة تربط أبناء الأمة وأداة تحمل تعاليم الدين والشريعة والإدارة ، ثم إنها نبع ثري للعواطف (ملكة أبيض ، ١٩٨٠ ، ص١١٤).

وقد بلغ اهتمام عبد الملك باللغة ونحوها أنه كان يردد « اللحن من الشريف أقبح من الجـــدري في الوجـــه الحسن » (البـــلاذري ، مخطوط ، ج ١١ ق ٢٣٧) ، وأورد السيوطي في تاريخه ، رواية روح بن زنباع ، عندما دخل على عبدالملك وهو مهموم ، لأنه كان يفكر فيمن يوليه أمر العرب ، فلم يجد ، ولما أشار عليه بالوليد ، قال له : إنه لا يحسن النحو. الأمر الذي دفع الوليد لدراسة النحو ، وكانت هذه المسألة تؤرق عبدالملك ، وتعزى أسبابها فيما نرى إلى أن الوليد ، كان أحب أولاد عبد الملك إليه ، ولم تطب نفسه بمفارقته ، ولم يسترضع له بالبادية كما استرضع لسليمان (البلاذري مخطوط ، ج ١١ ق٢٣٦) ، وفي العقد الفريد ، أن عبد الملك كان يقول « أضر بالوليد ، حبنا له ، فلم نؤدبه في البادية » (ابن عبد ربه ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ص ٢٤٥) ، وبالإجمال ، فإن عبد الملك يرى النحو زينة الأدب.

وهناك نواح أخرى ، اهتم بها المؤدبون ، كحسن السلوك ، والأدب الذي يرقى على العلم. وقد أشار إلى هذه الأمور عبد الملك في إحدى وصاياه التي ذكرها الأبراشي : التربية الإسلامية ، ١٤٤ دون أن يذكر مصدرها .ونقلها منه حسن عبد العال في كتابه التربية الإسلامية ، ١٦٣ ، دون أن يعلق عليها أو يشير إلى مرجعها وتتناول تعليم الصدق والبعد عن السفهاء وأصدقاء السوء ، ويطلب إليه أن يجنبهم الحشم والخدم لأنهم مفسدون لأخلاقهم وآدابهم ، وكذا يطلب إليه الاهتمام بتغذيتهم بإطعامهم اللحوم

وقص شعورهم ليقووا ، ويعود إلى الشعر ، يعلمهم أوزانه وقوافيه حتى يتذوقوا ما فيه من جمال .

وتمضي الوصية في تبيان العادات الحسنة التي يرتضيها عبد الملك لأبنائه كتنظيف الأسنان بالسواك عرضاً كل يوم ، ومص الماء دون عبه ، وحتى عندما يود المؤدب أن يتناولهم فليكن سراً ، حتى لا يعلم بأمرهم أحد ممن يفشون الأسرار ويذيعونها فتهتز صورهم في عين الرعية ، فلا يجرؤ أحد على احتقارهم (ابن قتيبة ، ١٩٧٣ ، ج ٢ ص ١٦٧ ، شلبي ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩) . ونحن نرى أن عبدالملك قد بيَّن لمؤدبي بنيه ما يستعينون به لترسيخ علمهم وعقلهم وزهدهم وعبادتهم وأدب لسانهم ونفوسهم ، وكذا حسن بلاغتهم وحسن السياسة ، فآفة الرعية مفارقة الطاعة ، وآفة الزعماء ضعف السياسة ولعمري تلك مكارم الأخلاق التي ما فتىء أحدنا جاداً عله يوصل بحبل خيطها .

إن رواية محمد بن ميمون المكي عن ابن عيينة توضح أساسيات العلم في عهد عبدالملك ، أو ما نسميه المقومات العلمية الأساسية لتكوين شخصية المتعلم ، فقد ذكر أنه مر على الزهري وهو جالس عند باب الصفا ، فجلس بين يديه ، فخاطبه الزهري : أقرأت القرآن ، فقال : بلى ، قال الزهري : أكتبت الحديث ، قال : بلى وعند أبي إسحق الهمداني ، فقال الزهري : أبو إسحق الهمداني أستاذ أستاذ (الطبري ، ١٩٦٢ ، ج ٣ ص ٢١٦ ، ج ٦ ص ١٩٥) .

وبالإجمال ، فإن المؤدبين ، كانوا يدرسون القرآن واللغة والنحو والأنساب والشعر مع العناية بالتعليم القصصي والوعظ ، ولدينا نص أورده الذهبي (الذهبي ، ١٣٨٣ هـ ، ج ٣ ص ٢١٦ ، ج ٥ ص ٣٣٠ ، ابن حجر ، ١٣٢٥ هـ ، ج ٥ ، ص ٨٥) يفيد بأن عبدالملك قد عزل أبا إدريس الخولاني ، عائذ بن عبدالله ، عن القصص ، وعينه قاضياً ، خلافاً لرغبة أبي إدريس الخولاني ، الذي استقبل أمر الخليفة بقوله « عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي » (البلاذري ، مخطوط ، ج ١١ ق ١٧٣) إلا أنه ليس بين أيدينا ما يؤكد بأن الخليفة قد طلب إلى مؤدب أبنائه أن يقص عليهم ، إلا من خلال العناية بسير الحكماء ، وتقديرنا أن أبناء الخليفة كانت تتاح لهم الفرص لسماع القصص في مجالس الخلفاء ، وقد اعتاد معاوية أن يقيم مجالس السمر في قصر الخلافة ، ويدعو إليها أعلام الفكر والأدب ، ويستمع إلى أخبار العرب والعجم

وإلى الشعر والأدب وغيرها، ويحرص على أن يحضرها ولي عهده يزيد (أمين، ١٩٦٩، ص١٥٦، ملكة أبيض، ١٩٨٠، ١٩٢).

ونحن نرى أن هناك أموراً أخرى، أدخلت في منهاج التأديب، ومنها المغازي، لا سيما وأن الزهري كان عالماً فيها، وضع لها المؤلفات، وتعليلنا أن عبد الملك قد أغفل ذكرها في وصاياه، لأن أحد أبنائه كان يميل إلى مطالعة كتب المغازي، أكثر من مطالعة الكتاب والسنة، ويضيف البلاذري أن عبد الملك قد أحرق كتاب المغازي بسبب ذلك (البلاذري، مخطوط، ج١١ ق١٧٣).

إن إلقاء نظرة على مؤلفات الزهري والشعبي تعطينا صورة ولو بسيطة لمنهاج التأديب الذي كانا يطبقانه، فقد ألف الزهري في المغازي، ونسب قريش وأسنان الخلفاء، والناسخ والمنسوخ من القرآن، ومشاهد النبي، وأحاديث رواها الحسن بن علي بن محمد الجوهري، وكذا في الشعر، بمعنى أن منهاجه شمل علوم القرآن ودراسته والسنة النبوية والشعر والتاريخ وتدبر معاني القرآن والتفكر فيه (البخاري، ١٩٦١، ج٤ ص٤٠٦، الذهبي، ١٣٨٣ هـ، ج٥ ص١٣٦، ابن كثير، ١٩٧٧، ج٩ ص٧٤٤، ابن الجوزي، ١٩٧٩، ج٢ ص٧٧، السخاوي، ١٩٧٩، ٨٨. ابن المعتز، ١٩٦٨، ص٤١٣).

أما الشعبي فقد ألف في المغازي والفرائض والجرح والتعديل والعقائد والفتوح، وكلها لا تخرج عن المنهاج الذي روعي في التأديب (الذهبي، ١٩٥٦، ج١ ص٨١، الخطيب البغدادي، بدون، ج١٢ ص٢٣٠، أبو نعيم، ١٩٦٧، ج٤، ص٣١٠، ابن سعد، ١٩٦٨، ج٦ ص١٧١).

ويكاد يتوافق منهاج التأديب عند عمر بن عبد العزيز مع الإطار العام الذي اختطه عبد الملك، المتمشي أساساً مع مرحلة تطور الدراسة العلمية عند الأمويين، إلا فيما يتعلق بالزهد، فقد أرادها عمر بن عبدالعزيز صفة مميزة لأبنائه، لتصبغ حياة أبنائه بالجد، إذ يطلب لمؤدب بنيه سهل أن يأخذهم بالجفاء لأنه أمعن لإقدامهم، ويوصيه بتركهم للصحبة الفاسدة لأنها تكسب الغفلة عن النواهي، وأن يتعودوا قلة الضحك، لأن كثرته تميت القلب، كما يحذره من الملاهي: المعازف واستماع الأغاني واللهج بها، وزيادة في الحرص فقد رسم عمر بن عبدالعزيز البرنامج اليومي لمؤدب

أولاده ، أن يفتح يومه بقراءة القرآن ، ومن ثم التدرب على الرماية حفاة ، فيرمون سبعة أرشاق وبعدها يقيلون ، وأورد الحديث الذي رواه ابن مسعود « يا بني قيلوا ، فإن الشياطين لا تقيل » (ابن الجوزي ، ١٣٣١ هـ ، ص٢٥٧).

أما هشام بن عبد الملك ، فيطلب إلى سليمان الكلبي ، مؤدب ابنه اتباع منهاج معين ، وأرى من المناسب أن نحلل هذه الوصية ، ففيها

- يحدد هشام الدوافع التي دعته للاستعانة بسليمان الكلبي ، فقد بلغه عنه ما يحب أن يراه في الرجال ، من علم وأدب ورأي.

- ويبلغه بالهدف العام الذي يقصده ، وهو تعليم وتأديب محمد بن أمير المؤمنين والنظر في أمره ورعايته.

- اتبع هشام مع المؤدب أسلوب الترغيب والترهيب ليضمن منه حسن الآداء ، إذ أنه هو المؤتمن عليه ، وحق عليه أداء الأمانة لا سيما وأنه يخاف الخليفة ويرجوه ، ويضيف بأنه كلما ارتقى الغلام درجة ، ارتفع شأن المؤدب معه.

- يطلب إليه أن يدخل عليه خاصة أهل القرآن وذوي الأسنان بدعوى أنه سيحفظ كلامهم ويصون نفسه ، أو أن الناس يرونهم وهم خارجون من عنده « فيرون أنكم على مثل ما هم عليه » ويحذره من إدخال الفساق أو شربة الخمر حتى لا يسمع قبيح كلامهم أو ينسب إلى معاشرتهم.

- يحدد له طريقة العقاب والثواب ، فإذا ما سمع منه الكلمة العوراء حفظها عليه حتى يقوم الناس من مجلسه ، وينبه إلى مواضع الزلل حتى لا يعود إليها ، وأما إذا سمع منه الكلمة المعجبة فطّن القوم لها.

- وأما حسن معاملة الناس لتسهل طاعتهم ويستقيم جانبهم ، فيطلب منه أن يعجل بإدخالهم عليه ، وليحسن استقبالهم وليطلب لهم الطعام ، ومن ثم ينظر في حوائجهم ويرى أنهم لا يسودون الناس إلا ببارغ الفضل وليس بالجناح.

- ثم يحدد له منهاج التأديب ويراه العلم بنسب العرب أولاً حتى لا يخفى على ابنه منه قليل ولا كثير ، ثم تعليمه منازل القمر (الفلك) ، والبلاغة ومواضع الكلام ومعرفة الجواب.

- وينبه إلى ضرورة إيقاع العقاب القاسي به، إن تباطأ عن التأدب، فليجره من رجله وإن كان مع أهله في لحافه ولا يتكتم عليه.

- حتى هيئته كمؤدب وابنه كمتأدب يطلب إليه ألاّ يخرج إلا وهو معتم ولا يركبن محذوفاً أو مهلوباً (أي مركوباً كامل الذنب والهيئة)، ولا يركبن سرجاً صغيراً فتبدو اليتاه، ولا يسيرن متلفتاً ولا طامحاً.

- وينبه إلى أنه سيمتحنه فإن نفعه كافأه الخليفة وإلاّ فلا يلومن إلاّ نفسه.

- وفي النهاية يحدد له الأجر، «ألف درهم في كل شهر، سوى كسوتك وجائزتك» (السجستاني، ١٩٦١، ١٣٧ - ١٣٩)[٣].

ويبدو أن هشام بن عبد الملك، كان يقتنص الفرص فيوصي سليمان بمزيد من الوصايا، «إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله، وأد الأمانة، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله، ثم روِّه من الشعر أحسنه، ثم تخلل به أحياء العرب، فخذ من صالح شعرهم، وتبصيره طرفاً من الحلال والحرام والخطب والمغازي» (الأبراشي، ١٩٧٥، ص١٤٦). بمعنى أنه أوصاه أن يشمل منهاجه، القرآن الكريم حفظاً ودرساً، ثم رواية أحسن الشعر، والرحيل معه والانتقال به، بين أحياء العرب ليروي عنهم أحسن الشعر وتبصيره بالحلال والحرام ودراسة خطب الفقهاء والعناية بها وكذلك المغازي.

ويبدو أن هشاماً كان يخالف أباه في دراسة السنة النبوية والمغازي، فلم يرد في الوصية التي بين أيدينا ذكر للأحاديث النبوية، في حين أنه جعل المغازي متطلباً تأديبياً، ولعله كان يرمي من وراء ذلك، التركيز على سيرة الرسول ﷺ ودراسة استراتيجية الغزوات النبوية ليستفيد منها خلفاء بني أمية عسكرياً، وليكونوا مؤهلين لقيادة الفتوحات التي انطلقت شرقاً وغرباً منذ عهد معاوية وخلفائه.

هذا وقد حرص الخلفاء على توجيه النصح للمؤدب ليكون قدوة للأبناء لأن الطفل يقلد مؤدبه، فعتبة بن أبي سفيان، يوصي عبد الصمد مؤدب ولده بإصلاح نفسه «ليكن إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن عيونهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت، وعلمهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف

الداء ، ولا تتكلف على عذر مني ، فإني قد اتكلت على كفاية منك (الدينوري ، ١٩٦٠ ، ج٢ ص٢٤٣ ، الجاحظ ، ١٩٤٨ ، ج٢ ص٥٣). وفي رواية أخرى أوردها ابن عبد ربه في العقد الفريد ، ٢/٢١٣ ، فصّل في المنهاج ، حيث يبدأ بكتاب الله مع عدم إكراه الأبناء عليه حتى لا يملوه ولا يتركوه مخافة أن يهجروه ، ثم يروي الأبناء أشرف الحديث ، ويعلمهم سنن الحكماء ويجنبهم محادثة النساء (ابن عبد ربه ، ١٩٤٠ ، ج٢ ص٢٤٣).

إننا نلاحظ تياراً جديداً قد تسرب إلى منهاج المؤدبين ، دون أن يفطن الخلفاء الأمويون الأوائل له ، أمثال عبد الملك ، بل اعملوا جهدهم لمقاومته والقضاء عليه بعد أن برزت معالمه في بلاطهم ، بالحجة تارة والمطاردة أحياناً وحتى قتل الداعين له . إن انثيال الأفكار العقلية المرتبطة بالقرآن الكريم والتي اعتمدت الجدل لتفسير بعض المعاني القرآنية والتبصير فيها ، كانت تعتبر البداية الأولى لظهور الاتجاهات المذهبية ، والتي تبلورت بعد ذلك فيما نسميه الفرق الإسلامية ، كالجبرية والقدرية والمعتزلة في المجتمع الإسلامي ، لقد كانت بداية تلك الفرق كما أشرت في عهد عبد الملك إلاّ أنها برزت كحقيقة واقعة منذ عهد الوليد بن يزيد ويعود ذلك فيما نرى ، إلى أن مؤدبي هذه المرحلة كانوا قد اطلعوا على العلم اليوناني والصابئي ، واللاهوتي المسيحي ، فتأثروا بما عندهم من نظريات وآراء ، كالجعد بن درهم ، ومعبد الجهني ، وجهم بن صفوان ، وأخذوا يطرحون تلك الآراء ، وكانت تلك بداية لحركة جديدة ، أخذت تنمو في المجتمع الأموي ، نمت ملامحها الأولى في بلاط الخلفاء الأمويين ، وهي الميل إلى الرأي كوسيلة تشريعية جديدة .

ومن ناحية أخرى ، فقد عزا الزرو أسباب ذلك لوجود عدد من الموالي في بلاط بني أمية ، أولئك الموالي الذين لم يخلصوا للإسلام ، ولم يتخلوا عن تراثهم الفلسفي الفكري القديم ، ثم إلى إسلام أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، وخلص الزرو إلى القول ، إن هذه الحركة الفلسفية التي اعتمدت الكلام والجدل ، بدأت تظهر في الشام في أواخر القرن الأول هـ (الزرو ، ١٩٧١ ، ٢٤٣).

ونحن مع تقديرنا لما ذهب إليه الزرو في ذلك ، فإننا نرى أن هناك ظروفاً أخرى جعلت الأثر السرياني واليوناني والوثني ملموساً في الحياة العامة ببلاد الشام ، ومن ثم تسرب إلى البلاط الأموي .

ولعله من الواضح أن اللغة السريانية ، كانت هي اللغة السائدة في الشام والعراق قبل الفتح الإسلامي ، وظلت لغة الترجمة من اليونانية وإليها ، ومن ثم إلى اللغة العربية ، فآراء جوستين الراهب (١٠٠ - ١٦٥ م) في المعرفة الفطرية ونفي الصفات الإلهية ، كانت معروفة لدى علماء الكلام المسلمين ، الذين سنتناولهم فيما بعد (Seale, 1964, p.14) وحتى القول بخلق القرآن ، فإن سيل يرى أنه مأخوذ من أقوال علماء اللاهوت والنصارى في خلق كلمة الله ، السيد المسيح ، ويبدو أن المسألة وصلت دمشق عن طريق اللاهوتيين المسيحيين ، وخاصة عن طريق يوحنا الدمشقي ، كما أن اتباع الوثنية والصابئية واليهودية ما زالوا يحتفظون ببذور ثقافاتهم الأولى ، ثم إن تلاقي مثل هذه الثقافات لا بد وأن يخلق حركة علمية في بلاد الشام ، ويفرز مجالات جديدة للبحث العلمي ، ولا يعقل أن يكون خلفاء بني أمية بعيدين عن تلك التطورات .

إن دراستنا لمؤدبي الخلفاء الأربعة الذين تلوا هشاماً ، وتحليل كتاباتهم بينت أن هناك عدداً من المؤدبين ، أمثال حماد الراوية ، وعبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني ، قد اتهموا بالزندقة ، وآخرين أمثال غيلان الدمشقي والجهم بن صفوان ، ومعبد الجهني والجعد بن درهم ، اتهموا بالجبرية أو القدرية ، وبعضهم اتهم بنفي صفات الله ، وقالوا بخلق القرآن وغيرها .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال ، كيف تمكن الجدليون ، علماء الكلام من الوصول إلى الخلفاء وتأديبهم . وبالتالي تسربت الإرهاصات الأولى لفرق المعتزلة والجبرية (القدرية) وغيرها .

أشار أسد رستم (رستم ، بدون ، ج٢ ص٧٣) ، إلى أن يوحنا الدمشقي تعلم اليونانية من الراهب قوزما الإيطالي ، خلال فترة أسر الأخير من قبل المسلمين ، وتمكن بها من الاطلاع على آراء المفكرين القدماء من رجال الكنيسة ، أمثال غريغورس النازياتري وبسيل الكبير (Seale, 1964, p. 6) ، الذي اهتم به علماء الكلام ونسجوا على منوال كتاباته ، المقدمة في المعرفة ، والإيمان الحق ، والثالوث المقدس وإيضاح المكنون ، لا سيما الفصول المتعلقة بصفات الله ، وأعماله من

حيث الجدل والفصول الفلسفية والهرطقات والإيمان القديم (غورديه ، ١٩٦٧ ، ص٣١٩).

ويقرر بروكلمان أن يوحنا الدمشقي ، كان آخر كبار العلماء بالعقائد على مذهب الكنيسة الإغريقية ، الذين أثروا في المجتمع العربي خلال تلك المرحلة (بروكلمان ، ١٩٧٧ ، ج ١ ص٢٥٦) ، يضاف إلى ذلك أن يوحنا الدمشقي نفسه كان قد تلقى علمه عن والده يونس ، مولى عثمان بن عفان ، والذي تتلمذ على يد سوسن النصراني ومعبد الجهني ، ووضع كتاباً في فضائل النصرانية ، وكان والده هذا صديقاً لعبد الملك بن مروان (الزرو ، ١٩٧١ ، ص١٢٦).

ومع أن فكرة القدر معروفة منذ أوائل العهد الأموي ، حيث وضع وهب بن منبه كتاباً في القدر ، ثم ندم عليه ، وكان وهب كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات (ياقوت ، ١٩٣٨ ، ج ٩ ص٢٥٩) وتوالت فيما بعد رسائل الرد على القدرية ، كرسالة أبي الأسود الدؤلي سنة ٦٩ هـ ، ويحيى بن يعمر سنة ٨٩ هـ ، ورسائل عبد الله بن إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر الثقفي وعمر بن عبد العزيز والشعبي والزهري (أبو نعيم ، ١٩٦٧ ، ج ٥ ص٣٢٦) ، فإن اختيار عبد الملك بن مروان لمعبد ابن خالد الجهني ليؤدب ولده سعيداً ، الذي كان يجالس الحسن البصري ، كان منفذاً ثابتاً لدخول الفكر الجدلي إلى بلاط عبد الملك بن مروان (السمعاني ، بدون ، ص١٤٥ البغدادي ، ١٩٧٨ ، ص١٤ ، ابن حجر ، ١٣٢٥ هـ ، ج ١ ص٢٢٥).

ولعل الضغط الذي مارسته القدرية على الوليد للبيعة لابنه إبراهيم ، قد سهلت الأمر لهم عند الأخير ، حتى عده البعض قدرياً . وهو الذي قرب اتباع غيلان بن أنس الكلبي الدمشقي (الطبري ، ١٩٦٢ ، ج ٧ ص٢٩٥ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج ٤ ص٢٥٥ ، البسوي ، ١٩٧٦ ، ج ٢ ص٤١٣ ، أمين ، ١٩٦٩ ، ص٢٨٥).

أما عن الجعد بن درهم أكثر المؤدبين تأثيراً في الفكر الأموي وما بعده ، والذي امتدت آثاره عبر تلميذه الجهم بن صفوان إلى العصر العباسي ، فقد أورد القلقشندي نص قسم كان يؤخذ على أولئك الذين يتهمون بالقدرية « ان العبد غير مكتسب ، وأن الجعد بن درهم محتقب » (القلقشندي ، ١٩٦٣ ، ج ١٣ ص٢٥٢ - ٢٥٣) ، وكانت آراؤه اللبنة الأولى التي أفرزت فيما بعد ما نسميه بالقدرية والمعتزلة ، وقد تلقى الجعد

ابن درهم آراءه عن بيان بن سمعان ، وكان الأخير قد أخذها عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم ، وكان الجعد يسكن حران ، وعلى دراية بآراء الصابئية واللاهوتيين المسيحيين فيها .

ويبدو أن ، الجعد كان أول من قال بخلق القرآن ، ونفى الصفات المتعلقة بالذات الإلهية ، وقد التقى به مروان عندما كان والياً على الجزيرة وحران فأعجبته آراؤه واستدعاه ليؤدبه ، وكان مروان يعير به فيقولون مروان الجعدي ، وخاصة بعد أن قتله خالد بن عبدالله القسري ، ولعلها من قبيل التندر[٤] (الذهبي ، ١٩٦٣ ، ج١ ص١٨٥ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج٥ ص١٦٠ ، بدون ، ج١ ص٢٣٠ ، البيهقي ، ١٩٧٠ ، ص٢٣٩ ، أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج١٨ ص١٢٣ ، الجاحظ ، ١٩٤٨ ، ج١ ص١٠٧ ، ابن نباتة المصري ، ١٩٥٧ ، ١٥٩ ، ابن تغري بردي ، ١٩٧١ ، ج١ ص٣٢٢) .

ومن جهة أخرى ، فقد حفلت كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة كتب طبقات الشعراء بأخبار مجون حماد الراوية ، الذي عرف بأنه مؤدب الوليد بن يزيد ، وهو الذي أفسده حسب ما أوردته تلك الروايات ، فقد اتهمت الثالوث حماداً الراوية ، وحماداً عجردا وحماداً بن الزبرقان ، بأنهم كانوا وراء إفساد الوليد بن يزيد (ابن النديم ، ١٩٧١ ، ص٩١ ـ ٩٢ ، أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج٥ ص١٦٤ ، ابن المعتز ، ١٩٦٨ ، ص١٥٧) ، وقد عرف حماد بعلمه بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها كما وصفه ابن المعتز في طبقاته بأنه شاعر مفلق (ابن المعتز ، ١٩٦٨ ، ص٦٩ ، البغدادي ، بدون ، ج٨ ص١٢١ ، أبو البركات الأنباري ، ١٩٦٧ ، ص٢٣) ، ويبدو أن ما حوته كتب الأدب من أخبار منادمته ونوادره مع الوليد بن يزيد مع ما داخلها من مبالغة وتضخم ، كانت المعبر إلى شخصية حماد الراوية ، فنسجت الروايات وذاعت الأقاويل حول مجونه وزندقته مع الوليد .

وكذا الحال بالنسبة لعبد الصمد بن عبد الأعلى الشباني ، الذي كان معلماً لأولاد عتبة بن أبي سفيان ، ومؤدباً للوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وقد اتهم بالزندقة ، ونسب إليه إفساد الوليد ، ويبدو أن أخبار مجونه قد تناهت إلى هشام فكتب إلى الوليد « إنك اتخذت عبد الصمد خدناً وأليفاً ومحدثاً ونديماً » وقد صح عندي أنه على غير الإسلام ، فحقق ذلك ما يقال عنك ، ولم أر بك من سوء ، فاحمل إليّ عبد الصمد مع

رسولي مذموماً مدحوراً ، فلم يجد بداً من إشخاصه ، ولكنه تحسر عليه .

لقد قذفوا أبا وهب بأمر كبير أو يزيد على الكبير
وأشهد أنهم كذبوا عليه شهادة عالم بهم خبير

(الطبري ، ١٩٦٢ ، ج ٧ ص٢١١ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج ٥ ص٢٦٥ ، عطوان ، ١٩٧٩ ، المقدمة) .

وكيفما كان الحال ، فإن طبقة الكتاب الذين عملوا في البلاط الأموي ، قد أدخلوا ثقافتهم إلى البلاط ، أو سهلوا الأمور للمؤدبين الذين التقوا وإياهم فكرياً ، فقد عمل سرجون بن منصور كاتباً مع يزيد بن معاوية ، وابنه معاوية ، وعمل ابنه مع مروان بن الحكم وغيرهم ، ثم فئة الموالي ، أمثال ، خالد مولى يزيد بن معاوية ، وصفوان مولى معاوية وأبي سهيل الأسود مولى مروان بن الحكم ، وعمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي ، وكذا صالح بن عبد الرحمن ، مولى بني مرة بن عبيد ، كاتب الوليد وسواهم ، إن هذه الفئة قد تركت بصماتها على منهاج التأديب ، وسهلت نشر الآراء العقلية في البلاط الأموي (المسعودي ، ١٩٦٨ ، ص٢٦٥ ، ص٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤) .

من كل ما تقدم نخلص إلى القول ، بأن منهاج التأديب في العصر الأموي ، كان متمشياً مع التطور العلمي لمختلف صنوف المعرفة في ذلك العصر ، فقد كان المنهاج حتى عصر عبد الملك بن مروان متمماً للعلم الديني ، الذي بدأ في عهد الصحابة وصدر الإسلام مع بعض الإضافات البسيطة ، ومن ثم أدخلت فروع جديدة متطورة في عهد عبدالملك وبنيه حتى خلافة الوليد ، فأدخلت مناهج علم الكلام ، مع أننا لا نجد كتباً كثيرة لهذا العلم خلال هذه الحقبة .

طرائق التأديب :

لا تتناول المراجع والمصادر التي رجعت إليها ، الأسلوب الذي كان يتبعه المؤدب في تأديب أولاد الخلفاء ، كما لم يشر أي من المؤدبين إلى هذا الأسلوب ، وكل ما ورد إشارات ضمن النصائح أو الوصايا ، غير أننا نستطيع تحديد معالمه من خلال تلك الإشارات ، وعلى الأخص وصايا عبدالملك وابنه هشام ، أو من خلال الأطر العامة

التي وصفها الزهري ، والتي وردت في كتاب ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله وغيرها من المصادر الحديثة .

وبالإجمال ، فإن التلقين والتكرار كانا من أهم وسائل التعليم عند المؤدبين ، وذلك لارتباطه بحفظ القرآن واستظهاره ، فبالرغم من أن التكرار مفيد للمتعلمين ، إلا أن الزهري يعتبره أثقل عليه من الصخر (ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج ١ ص ١٤٠) .

وحتى طريقة تدريس القرآن التي وصفها الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام ٤٩/٢ ، لا تخرج عن هذا المضمون ، وتظهر أهمية الحفظ كوسيلة تعليمية من إشارات ابن قتيبة حين قرر : أول العلم الصمت والثاني ، الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل والخامس النشر (ابن قتيبة ، ١٩٧٣ ، ج ٢ ص١٢٢ ، ابن عبد ربه ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ص٢١٥) ، وكذا الجاحظ في البيان والتبيين ١٩٨/٢ في واحدة من روايتين ، جعل الحفظ ثالث موجبات العلم ، أما في الرواية الأخرى فقد جعله رابع الموجبات وأضاف النية والاستماع والفهم والحفظ ، ويلاحظ أن الحفظ كان ضرورياً لأشعارهم قبل الإسلام ، وأساساً لدينهم لحفظ القرآن ورواية الحديث ، ولهذا نرى بعض العلماء يرشدون طلابهم إلى الإكثار من تناول أنواع محددة من الطعام بدعوى أنها تقوي الذاكرة ، فالزهري يروي « من سره أن يحفظ الحديث فليأكل الزبيب » (الذهبي ، ١٣٨٣ ، ج ٥ ص١٤٥ ، الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج ٨ ص٩٢ ، p.3, Tritton, 1957, p.5 Dodge, 1962,) . كما أوصى طلابه أيضاً بالإكثار من العسل لأنه يقوي الذاكرة .

ويبدو أن عمرو بن عتبة قد أصاب كبد الحقيقة ، حين حدد مهمة المؤدب لأبنائه ، فخاطبه بقوله « كن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء » (الأبراشي ، ١٩٧٥ ، ص١٤٥ ، ـ ١٤٦) ومن ناحية أخرى فإن المؤدب الزهري كان يعمد إلى تبسيط منهاجه بتجزئته وأخذ العلم درجة درجة وعدم أخذه دفعة واحدة ، فقال « من طلب العلم جملة ، فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين » (القرطبي ، ١٩٦٧ ، ج ١ ص١٠٤) ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، (ابن قتيبة ، ١٩٧٣ ، ج ٢ ص١٦٧) ، وورد في وصية عبد الملك حين طلب إلى المؤدب ألا يخرج أبناءه من علم إلى علم حتى يفهموه (البلاذري ، مخطوط ، ج ١١ ق ١٤٩) .

وقد مال الشعبي إلى هذا الأسلوب ، فكان يتخير المنهاج ويرى أن العلم أكثر من أن يحاط به فعلى المرء أن يأخذ من العلم أحسنه (ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج١ ص١٤٠) ، ولهذا ورد في وصاياه أن يأخذ من الشعر أعفه ، ومن العلم أحسنه .

إن استعراضنا لوصايا الزهري في هذا المجال ، توضح منهاجه وأساليبه التأديبية بشكل خاص ، وأساليب المؤدبين بوجه عام ، فمثلاً يرى الزهري بأن العلم واد ، فإذا هبطت وادياً ، عليك بالتؤدة حتى تخرج (الذهبي ١٣٨٣ هـ ، ج ٥ ص١٤٤) ، ونصح بعدم اللجوء إلى تكثيف الدراسة أو تشعيب فروع المنهاج ، وإنما دعا إلى الرفق بذلك ، واعتمد الزمن كعامل مساعد للتعايش مع المنهاج « إن هذا العلم إن أخذته بالمكاثرة عليك لم تظفر منه بشيء ، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به » ، وبمعنى آخر ، يرى الزهري ضرورة مراعاة المستوى العقلي لدى المتعلم ، حيث ان الحديث الذي لا تبلغه العقول ، لا بد وأن يكون فتنة على بعض المتعلمين (أبو نعيم الأصبهاني ، ١٩٦٧ ، ج٣ ص٣٦٣ ، ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج١ ص٣٦٤) .

- إن تنوع الدراسة للمتأدب كان أسلوباً متبعاً لدى الزهري ، فقد نصح المؤدبين بضرورة اللجوء إلى ذلك ، حتى لا يتطرق الملل إلى قلوب الدارسين ، إذ ان الاقتصار على علم واحد يثقل ذهن الدارس ويورث الملل ويخلق الضجر والتأفف ، ولذا نراه يقول للمؤدبين « هاتوا من أشعاركم ، هاتوا من أحاديثكم ، فإن الأذن مجّاجة وإن للنفس (حمضة) » (ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج١ ص١٣٨) ، ويرى أن في التنوع راحة للنفس والقلب وترويحاً لهما (ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج١ ص١٣٩) .

- ثم لا بد من متابعة ما استذكره المتأدب ، فدغفل بن حنظلة الشباني يقول لمعاوية « إن غائلة العلم النسيان » ، والزهري يحذر من شر غوائل العلم ألا وهي ترك العالم حتى يذهب علمه ، وترك المذاكرة والنسيان والكذب ، وتلك أمور ما زالت أساسية لازمة لكل من عرف مقدار علمه (ابن عبد البر ، ١٩٧٨ ، ج١ ص١٤٣) .

ومن ناحية أخرى ، أقر الخلفاء مبدأ العقاب من قبل المؤدب لأبنائهم غير أنهم حددوا أصوليته ، فعبد الملك بن مروان ، يطلب إلى مؤدب بنيه « أن يخوفهم به ، وأن يؤدبهم دونه » (البلاذري ، ١٨٨٣ ، ج١ ص١٤٥) ، حيث إنه يضع نفسه في خدمة المؤدب في سبيل إنجاح عمله لتقويم سلوك المتأدب ، وقد أورد ابن الجوزي في سيرة

عمر بن عبد العزيز ، ٨ ، ٩ ، خبز إبطائه عن الصلاة ذات يوم بدعوى أن مرجلية كانت تسكن شعره ، فخاطبه مؤدبه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بقوله « بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة » وكتب إلى والده يبلغه ذلك ، فبعث إليه عبد العزيز رسولاً ، لم يكلمه حتى حلق شعره (البسوي ، ١٩٧٦ ، ج١ ص٥٦٩) . والرواية تبين مدى اهتمام أولي الأمر بإنجاح مهمة المؤدب وتقديرهم لأهمية دوره ، غير أن الخلفاء كانوا يؤثرون أن يتم العقاب بالسر دون الجهر ، لأن ذلك أحفظ لهيبة المتأدب ، وقد هدأ أحدهم غضب الخليفة عبد الملك ، إذ جاءه أحد أبنائه باكياً ، لأن معلماً ضربه ، فهم عبد الملك بالمعلم ، إلا أن المؤدب المقرب خاطبه قائلاً : دعوه يبكي ، فإنه أفتح لجرمه وأوضح لبصره وأذهب لصوته (الجاحظ ، ١٩٤٨ ، ج١ ص٢٥١) .

ونحن نرى بأن عبد الملك بن مروان ، ما كان يغضبه عقاب بنيه ، ولكنه يراه مؤثراً ومجدياً إذا تم سراً ، ومن ثم أحفظ لهيبة بنيه ، فهم يعدون لتولي أمر الدولة ، وقد يهون أمرهم على من رآهم وهم يعاقبون لخطأ ارتكبوه ، هذا وقد حفلت المراجع بوصايا عبد الملك وأبنائه الخلفاء بذلك ومنها « إذا احتجت أن تتناولهم بأدب ، فليكن ذلك في ستر ، لا يعلم به أحد من الغاشية ، فيهونوا عليه » ، (ابن قتيبة ، ١٩٧٣ ، ج٢ ص١٦٣) ، وكذا هشام بن عبد الملك يوصي مؤدب بنيه بأنه وحتى إن سمع منه الكلمة العوراء فلا يؤنبه حتى لا يخجله ، لأن خطأه قد يعود إلى الصواب ، ويطلب إليه أن يحفظها عليه ، فإذا خلا به رده عنها (ابن الجوزي ، بدون ، ص٣٩) . وتظهر مجمل الإشارات التي ذكرناها بأن الخلفاء كانوا حريصين على توفير المناخ المناسب لمؤدبي أولادهم حتى تتم العملية التأديبية بكل يسر وسهولة ، وإزاء ذلك حرص الخلفاء على أن ترفع لهم ما تشبه التقارير التي تبين سيرة أبنائهم ، أو أن يقوموا هم أنفسهم باختبار ذلك ، كما كان يفعل عبدالملك بن مروان ، إذ كان يلبس جبة ورداء ويجلس للناس وينظر في أمورهم ، ويقف على بنيه في الكتاب (البلاذري ، مخطوط ، ج١١ ق٦٩٥) ، وقد أورد الطبري ، تاريخ الأمم ، ٢١١/٧/ ، والأصفهاني : الأغاني ، ٣/٧ ، وابن الأثير : الكامل ، ٢٦٥/٥ ، رواية طلب فيها عبدالملك إلى بنيه أن ينشر كل واحد منهم أرق بيت شعر قالته العرب ولا يفحش (البلاذري ، مخطوط ، ج١١ ق٦٩٥) .

وكان عبدالعزيز بن مروان يسأل عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، مؤدب أولاده عن ولديه عبدالرحمن ومروان ، وقد كان جوابه ، أما عبدالرحمن فطفل وأما مروان : فإني إن أتيته حجب ، وإن قعدت عنه عتب ، وإن عاتبته صخب وإن صاحبته غضب » (الزبير بن بكار ، ١٩٧٢ ، ص٤٩ ـ ٥٠).

وعليه ، فقد حرص الخلفاء على متابعة أخبار أبنائهم التأديبية ، وعملوا على توفير كل أسباب الراحة والتعلم لهم ، وحددوا للمؤدبين أجورهم مع ما يرافق ذلك من امتيازات ، لا بد وأن يحصل عليها كل من اتصل بذوي النفوذ والجاه ، وغالباً ما يفرد للمؤدب جناح خاص في قصر الفتى المتأدب ، يعيش فيه كأحد أفراد العائلة ، غير أن ما يلفت نظرنا أن كافة المراجع والمصادر قد أجمعت على ألا يتقاضى المعلم أي أجر نظير تعليمه للقرآن الكريم ، وكانت تلك سنة متبعة منذ عهد الصحابة الذين كرهوا أن يأخذوا أجراً على تعليم القرآن ، فقد ورد في الأثر أن عبادة بن الصامت سأل الرسول ﷺ حين أهدي إليه قوس في المدينة لأنه علم أحد المسلمين القرآن ، هل يأخذه أم لا ،وكان جوابه ﷺ «إن سرك أن تطوق بها طوقاً من النار فاقبلها » (القرطبي ، ١٩٦٧ ، ج ١ ص٣٣٥ ، أبو نعيم الأصبهاني ، ١٩٦٧).

وليس معنى هذا ، أن المؤدب لا يأخذ أجراً على تأديبه ، فقد اعتاد عبدالملك أن يسمي الأجر للمؤدب بعد أن يوصيه ، بالإضافة إلى الصلات والهبات والهدايا التي تغدق عليه ، وقد أورد البلاذري في أنساب الأشراف ١٤٩/١١ ، أن عبدالملك بعد أن وصى مؤدب ابنه ، سمى له الرزق وبدأه بصلة حسنة ، ومع أن المراجع تصف عبدالملك بالبخل ، فإنه ـ فيما يبدو ـ كان كريماً مع مؤدبي بنيه لإدراكه أهمية العمل الذي يقومون به ، وقد أجاب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر أحد مؤدبي أولاده ، عندما طلب إليه أن يعلمهم ، ووعده بإثابة عظيمة ، بأن رسول الله ﷺ ينهى عن ذلك بقوله «من أخذ على تعليم القرآن قوساً ، قلده الله قوساً من نار يوم القيامة ، فأردف عبد الملك قائلاً : فإني لست أعطيك على القرآن ، وإنما أعطيك على النحو » (الذهبي ، ١٣٨٣ ، ج ٥ ص٢٢٦ ، الزرو ، ١٩٧١ ، ص٢٨) ، وبالغ بعض الخلفاء في إكرام المؤدبين بشكل ظاهر ، وخاصة هشام بن عبد الملك الذي كتب إلى يوسف بن عمر ، أن يبعث إليه حماداً الراوية ، وان يعطيه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة (أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج ٥ ، ص١٦٤). وأما الوليد فقد

طلب حماداً ، على أن يحمل على ما يجب من دواب البريد ، وأن يعطى عشرة آلاف دينار معونة له (ابن الأنباري ، ١٩٦٧ ، ص٣٦).

ومن ناحية أخرى ، اعتاد بعض الآباء أن يرسل عطاياه إلى المؤدبين ، توزع بينهم دون تحديد أو تعيين ، ويروى أن عبد العزيز بن مروان أرسل ألطافه إلى ابنه عمر في المدينة ، فجعل الفتى يقسمها بين علماء ومشايخ قريش (الزبير بن بكار ، ١٩٧٢ ، ص٢٠٩).

ولعلنا نرى أن عبد العزيز بن مروان آثر ألا يسمي الرزق للمؤدبين ، لأنه يعتبر كل ما يدفع للمؤدبين ، إنما هو دون حقوقهم ، وليترك الحرية لابنه لتوزيعها على العلماء ومشايخ القوم من الفقهاء . أما عبد الملك بن مروان فقد كان ما يدفعه من مال إنما هو من بيت المال ، فلا بد من تسمية الرزق وتحديده . وبالإجمال ، فلقد عاش المؤدبون حياة هنيئة غالباً ، وحاول الخلفاء قدر جهدهم توفير الجو النفسي الملائم لهم ، وذلك بحل كافة المشاكل التي قد يتعرضون لها ، ومثال ذلك ، أن هشام بن عبد الملك ، سدد ديون الزهري البالغة سبعة آلاف دينار من أجل أن يوفر له المناخ النفسي المناسب ليتفرغ لعلمه وتأديبه ، ومخافة أن يشتغل بمتاع الدنيا عن رعاية أولاد الخليفة (الذهبي : ١٩٥٦ ، ج ١ ص٧٩ ، ابن حجر ، ١٣٢٥ هـ ، ج ٩ ص٤٤٥).

أثر المؤدبين على خلفاء بني أمية :

لا نضيف جديداً ، إذا ما قررنا أن المؤدب هو الذي يشكل شخصية تلميذه في المراحل الأولى من حياته ، لا سيما إن كان مؤدبه وراعي أمره ، فكيف إذا لازمه سحابة نهاره وطول ليله ، غير أن ما يثير انتباهنا تلك النتائج السياسية التي انعكست آثارها على الحركة الاجتماعية في العصر الأموي ، بل وحددت مسارها غالباً ، وبدت بصماتها واضحة في المجتمع الأموي ، فالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يرعى الحركة العلمية الفقهية ، لأنه تأدب على يدي كبار الصحابة ، أمثال عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، وأبي سعيد الخدري وغيرهم ممن ذكرناهم في حينه ، ويتضاعف اهتمامنا إذ يعتنق بعض خلفاء بني أمية آراء مؤدبيهم المذهبية ، ويعملون بكل لأي على نشر تلك الآراء بين رعاياهم ، فالوليد بن يزيد يقرب القدرية ويتأثر بآرائهم حتى ألحوا عليه بضرورة بيعة إبراهيم (الطبري ، ١٩٦٢ ، ج٧ ص٢٩٠ ، أبو الفرج

الأصفهاني ، ١٩٦٩ ، ج ٥ ص١٦٤ ، البغدادي ، ١٩٧٨ ، ص١٤). وكذا يزيد بن الوليد الذي قرب أصحاب غيلان الدمشقي ، ونفذت كلمتهم عنده ، وانسحب مثل هذا التأثير على سعيد بن عبد الملك ، الذي أعجب بآراء معبد الجهني لدرجة جعلته يتصدى لكل من يحاول المساس باتباع معبد ، بالرغم من اتهام معبد بالزندقة والصابئية وقذفه باتباع المذهب اليعقوبي النصراني ، إلاّ أن سعيداً استمر في إظهار إعجابه بآراء معبد حتى بعد أن أعدم.

إن صفة المجون واللهو التي ألصقت بالوليد بن يزيد ، كانت نتيجة لتأثره بآراء عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني ، وحماد الراوية ، وحتى مصاحبتهما إلى أن قذف بالفساد ، ودبجت الأحاديث في تقريع الصحبة ، وحلت النقمة بهما (عطوان ، ١٩٧٩ ، أنظر الديوان).

ويكاد يكون تأثير المؤدبين واضحاً في سيرة الخليفة مروان بن محمد الملقب بالجعدي ، نسبة لمؤدبه الجعد بن درهم ، المشار إليه سابقاً (ابن حجر ، ١٩٧١ ، ج ٢ ص١٠٥ ، ابن الأثير ، ١٩٦٧ ، ج ٥ ص١٠٦). وقد بلغ من تأثيره أن القلقشندي أورد نص قسم يؤخذ على أولئك الذين يتهمون باتباع آراء الجعد كدليل براءتهم (القلقشندي ، ١٩٦٣ ، ج ١٣ ص٢٥٢) ، وما ذلك إلاّ لأن العباسيين كانوا يخشون تسرب آراء الجعد.

لقد أدرك عبد الملك بن مروان مدى تأثير المؤدبين ، فجاءت وصاياه مركزة على صفات المؤدب الصالحة ، التي يتوجب عليه إبرازها لتلاميذه ، وغالباً ما بدأت تلك الوصايا بعبارة « ليكن إصلاحك بني إصلاحك نفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت » (ابن قتيبة ، ١٩٧٣ ، ج ٢ ص١٦٦ ، ابن عبد ربه ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ص٤٣٦).

ومن ناحية أخرى ، فقد أورد صاحب تاريخ مختصر الدول رواية حول مقتل المؤدب عمر المقصوص ، الذي كان يؤدب معاوية بن يزيد ، وفحواها أن صاحب تاريخ المختصر عزا أمر تنازل معاوية بن يزيد إلى اعتناق آراء مؤدبه لآل البيت ، فأظهر حبه لآل علي ، وذهب ابن العبري إلى أبعد من ذلك فاعتبره قدرياً ، الأمر الذي جعل بني أمية تأمر بقتل المؤدب عمر المقصوص (أبو الفرج الملطي ، ١٩٤٩ ، ص١١) ،

ومع أن التحيز والإغراض واضحان في هذه الرواية فإنها تظهر مدى أهمية المؤدب في تسيير الأحداث حتى السياسية منها ، وأن شخصيته كانت حاضرة في الذهنية التي تؤرخ أو تعلل الأحداث .

وكيفما كان الحال ، فإن أثر المؤدبين كان واضحاً حتى في سيرة خلفاء بني أمية ولعل إعادة دراسة سيرة مؤدبي يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد ستكشف بلا شك جوانب جديدة من حياة هذين الخليفتين .

إننا لا نبالغ إذا ما اعتبرنا أن اتصال خالد بن يزيد بن معاوية بالراهب ماريانوس والمترجم أصطفن القديم ، قد مهد الطريق أمام خلفاء بني أمية للاهتمام بالعلوم التطبيقية حتى غدت الكيمياء العربية الإسلامية علماً في بلاط خالد بن يزيد ، وشهد ذاك البلاط بواكير الإنتاج العربي الإسلامي في الكيمياء ، إذ كيف نفسر أن كتب الفهارس الحالية قد حوت ٢٥٠ كتاباً لجابر بن حيان ، يوجد منها الآن ٥٢ كتاباً ، في حين أن بعض المراجع المعاصرة تجعل لجابر بن حيان ٣٠٠٠ كتاب ، فكيف نفسر كل هذا النشاط العلمي دون الأخذ بعين الاعتبار نشاط خالد بن يزيد ابن معاوية في هذا المجال خاصة وبلاط الأمويين عامة .

وأخيراً ، فإن دراسة التاريخ الأموي وعلى الأخص تاريخ التأديب فيه تحتاج إلى معاناة خاصة متميزة وتتطلب إعادة نظر ، فالأمر جد صعب معقد ، فالمناقب مطموسة والمثالب بارزة مضخمة ، ولا بد من التروي والحرص ، والتخلص من رواسب الأفكار قبل البدء به ، ولعل هذه ترقى أن تكون علامة على الطريق الأفعوي الطويل ، ومحاولة جادة ، فإن أخطأت فلنا أجر المجتهد ، وإن أصبت فهذا ما قصدت والله الموفق .

الهوامش

(١) المناضلة: المناضلة على البعد أو المتباعدة، حيث يكون السبق للسهم الأبعد (علوي، ١٩٤٩، ص١٢٠).

(٢) كان سيدنا عمر أول من أولى هذا الجانب عناية متميزة.

(٣) ويستدل من بعض الأقوال، ان العمائم في أيام بني أمية، كانت تتخذ عند الخاصة والمتأنقين من جنس الثياب، ولها أهمية خاصة للحفاظ على المظهر والهيئة (المبرد، بدون، ص٢٥٧).

(٤) ألحقت بمروان عدة ألقاب، منها الجعدي والحمار، ولقب ثالث، أشار إليه أبو الفرج الملطي، صاحب تاريخ الدول السرياني وهو بهار الجزيرة، وعللها، لأنه كان يؤثر ورد الزعفران، أي بهار البر، عندما كان متولياً لمنطقة فردوا (أبو الفرج الملطي، ١٩٤٩، ص٤٨٨).

(٥) أورد ابن عساكر ج٣ ق ١٣١، ترجمة بشر بن الوليد، ان الوليد قد وفر لابنه العباس تربية جيدة، شملت كل الآداب بما في ذلك الرقص والموسيقى، وأضاف أن من مآثر الوليد، انه اعتنى بتكوين مكتبة ضخمة ضمت مصاحف وقصصاً وأشعاراً (ملكة أبيض، ١٩٨٠، ص١٢٧).

المخطوطات :

البلاذري (أحمد بن يحيى) ت ٢٧٩ هـ /٨٩٢م.

أنساب الأشراف - مخطوط بالمكتبة السليمانية رقم ٥٩٨ .

ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) ت ٥٧١ هـ /

تاريخ مدينة دمشق. مخطوط ، بالمكتبة الظاهرية ، رقم ١٢٥٦ ناسخ.

المطبوعات :

الأبراشي (محمد عطية)

التربية الإسلامية وفلاسفتها. ط مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٥ .

ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد) ت ٦٣٠ هـ.

الكامل في التاريخ. ٨ أجزاء ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .

أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد) ت٣٥٦ .

الأغاني. ٣٠ جزءاً ، ط مصر ، دار الشعب ١٩٦٩ .

اللباب في تهذيب الأنساب. ٣ مجلدات ، بيروت ، دار صادر ، بدون

(أحمد أمين)

فجر الإسلام. ط العاشرة بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٩ .

بدران (عبد القادر)

تهذيب تاريخ دمشق (لابن عساكر). ٧ مجلدات ، ط بيروت ، دار المسيرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

أبو البركات الأنباري (عبد الرحمن بن محمد) ت ٥٧٧ هـ.

نزهة الألباء في طبقات الأدباء. ط القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٦٧ ، ط بغداد ، دار الأندلس ، ١٩٧٠ .

بروكلمان (كارل)
تاريخ الأدب العربي. المترجم، ٦ أجزاء ط مصر، دار المعارف، ١٩٧٧.
البسوي (يعقوب بن سفيان) ت ٢٧٧ هـ.
المعرفة والتاريخ. ١٣ جزءاً، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦.
البغدادي (عبد القاهر بن طاهر) ت ٤٢٩ هـ.
الفرق بين الفرق. ط بيروت، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨.
البغدادي (عبد القادر بن عمر) ت ١٠٩٣ هـ.
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. ٤ مجلدات، بيروت، دار صادر، بدون
البيهقي (إبراهيم بن محمد) ت
المحاسن والمساوىء. بيروت، دار صادر ١٩٧٠.
ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي) ت ٨٧٤ هـ.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ١٦ مجلداً، القاهرة، وزارة الثقافة ١٩٧١.
ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد) ت ٦٣٠ هـ.
الكامل في التاريخ. ٩ مجلدات، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ثانية ١٩٦٧.
الجاحظ (عمر بن بحر)
البيان والتبيين. مجلدان، ط القاهرة، الخانجي، ١٩٤٨.
« فصول مختارة من كتب الجاحظ »، اختارها حاتم صالح، **مجلة المورد** المجلد السابع، العدد الرابع، ١٩٧٨.
التاج في أخلاق الملوك. بيروت، دار الفكر، ١٩٥٥.
ابن الجزري (محمد بن محمد)
غاية النهاية في طبقات القراء. مصر، مطبعة السعادة، ١٩٢٣.
ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) ت ٥٩٧ هـ.
- **صفوة الصفوة**. ٤ مجلدات، بيروت، دار المعرفة، الثانية ١٩٧٩.
- **سيرة عمر بن عبدالعزيز**. ط مصر، مطبعة المؤيد، ١٣٣١ هـ.
- **تلبيس إبليس**. بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٦٨ هـ.
-
كتاب الأذكياء. بيروت. المكتب التجاري، بدون
ابن حبيب (محمد، أبو جعفر) ت ٢٤٥ هـ.
المحبر. بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون
ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) ت ٨٥٢ هـ.

لسان الميزان. ٧ مجلدات، بيروت، مؤسسة الأعظمي، ثانية، ١٩٧١.
تهذيب التهذيب. ٩ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٣٢٥ هـ.
الحموي (ياقوت بن عبد الله) ت ٦٢٦ هـ.
: **معجم البلدان**. ٥ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧.
: **معجم الأدباء**. ٢٠ مجلداً، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٣٨.
الحصري القيرواني (إبراهيم بن علي) ت ٤١٣ هـ أو ٤٥٣ هـ.
زهر الآداب وثمر الألباب. مجلدان، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٩٧٠.
الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) ت ٤٦٣ هـ.
تأريخ بغداد. ١٤ مجلداً، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون سنة.
ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ.
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. ٧ مجلدات، بيروت، الأعلمي ١٩٧١.
ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر) ت ٦٨١ هـ.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ٨ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٧٢.
ابن دريد (محمد بن الحسن) ت ٣٢١ هـ.
الاشتقاق. القاهرة، عيسى البابي، ١٩٥٨.
الدوري (عبد العزيز)
مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. بيروت، الكاثوليكية، ١٩٦٤.
الدينوري (أحمد بن داود) ت ٢٨٢ هـ.
الأخبار الطوال. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠.
الذهبي (شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان). ت ٧٤٨ هـ.
تذكرة الحفاظ. ٤ مجلدات، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٦.
ميزان الاعتدال في نقد الرجال. ٤ مجلدات، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦٣.
تاريخ الإسلام. مصر، مطبعة السعادة، ١٣٨٣ هـ.
العبر في خبر من غبر. ٦٠ مجلدات، الكويت، مطبعة الحكومة، ١٩٦٦.
رستم أسد
كنيسة ـ مدينة الله ـ إنطاكية. بيروت، مطبعة دار الفنون، بدون
الزبير بن بكار (أبو عبد الله) ت ٢٥٦ هـ.
الأخبار الموفقيات. بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٢

الزرو (خليل داود)
الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني الهجريين. بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧١.
السجستاني (أبو حاتم، سهل بن محمد) ت ٢٥٠ هـ.
المعمرون والوصايا. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١.
السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) ت ٩٠٢ هـ.
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩.
سزكين (فؤاد)
تاريخ التراث العربي. الكويت، جامعة الكويت، ١٩٧٥.
ابن سعد (محمد) ت ٢٣٠ هـ.
الطبقات الكبرى. ٩ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.
السمعاني (عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي) ت ٥٦٢ هـ.
الأنساب. بعناية مرجليوث، بغداد، المثنى، بدون
السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) ت ٩١١ هـ.
تاريخ الخلفاء. مصر، دار السعادة، ١٩٥٢.
شلبي (أحمد)
تاريخ التربية الإسلامية. مصر، مكتبة النهضة، ثالثة ١٩٦٩.
الطبري (محمد بن جرير) ت ٣١٠ هـ.
تاريخ الأمم والملوك. ١٠ مجلدات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.
ابن عبد البر (أبو عمر، يوسف) ت ٤٦٣ هـ.
جامع بيان العلم وفضله. جزآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨.
ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) ت ٣٢٧ هـ.
العقد الفريد. ٨ مجلدات، ط مصر، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤٠.
عطوان (حسين).
شعر الوليد بن يزيد. عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٧٩.
أبو علي القالي (إسماعيل بن القاسم) ت ٣٥٦ هـ.
الأمالي. مجلدان، بيروت، دار الآفاق، بدون
ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) ت ١٠٨٩ هـ.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ٨ مجلدات، بيروت، المكتب التجاري، بدون

غوردية (لويس)
فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية. تعريب صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٧.

أبو الفرج الملطي ت ٦٨٥ هـ.
تاريخ الدول السريانية. (بالسرياني)، ترجمة الأب إسحق ارميلة، بيروت، أعداد مختلفة من مجلة المشرق.
: **تاريخ مختصر الدول**. بيروت، الكاثوليكية، ١٩٤٩.

أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) ٣٥٦ هـ.
الأغاني. ٣٠ مجلداً، ط مصر، دار الشعب ١٩٦٩.

ابن قتيبة (محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري) ت ٢٧٦ هـ.
المعارف. بيروت، دار إحياء التراث العربي، الثانية، ١٩٧٠.
عيون الأخبار. مجلدان، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٣.

القرطبي (محمد بن أحمد، أبو عبد الله)
الجامع لأحكام القرآن. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.

القلقشندي (أحمد بن علي، أبو العباس) ت ٨٢١ هـ.
صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ١٤ مجلداً، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٣.

الكتبي (محمد بن شاكر) ت ٧٦٤ هـ.
فوات الوفيات. ٥ مجلدات، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر) ت ٧٧٤ هـ.
البداية والنهاية. ١٤ مجلداً، بيروت، مكتبة المعارف، ثانية ١٩٧٣.

المبرد (محمد بن يزيد، أبو العباس) ت ٢٨٥ هـ.
الكامل في الأدب واللغة. بيروت، مكتبة المعارف، بدون

المسعودي، (علي بن الحسين بن علي) ت ٣٤٦ هـ.
مروج الذهب ومعادن الجوهر. ٤ مجلدات، مصر، دار السعادة، ١٩٦٤.
التنبيه والإشراف. بيروت، دار التراث، ١٩٦٨.

ابن المعتز (عبد الله) ت ٢٩٦ هـ.
طبقات الشعراء. مصر، دار المعارف، ١٩٦٨.

ملكة أبيض
التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الأولى،

بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ .

ابن نباته المصري (محمد بن محمد) ت ٨٦٧ هـ .

سرح العيون .(شرح رسالة ابن زيدون) القاهرة ، مصطفى البابي ، ١٩٥٧ .

ابن النديم (محمد بن أبي يعقوب)

كتاب الفهرست للنديم . طهران ، رضا ـ تجدد ، ١٩٧١ .

أبو نعيم (الاصبهاني) (أحمد بن عبد الله) ت ٤٣٠ هـ .

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . ١٠ مجلدات ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .

Dodge, R. ***Muslims in the Medieval Times.*** Washington D.C., 1962.

Seale, Morris. ***Muslim Theologe.*** Lodnon: Luzac Company, 1964.

Trihon, S. ***Materials of Muslim Education in the Middle Ages.*** Oxford University Press, 1957.